
ليسقط الصمت
خناتة بنونة
توزيع
دار الكتاب
الدار البيضاء

ليسقط الصمت

الغلاف بريشة الفنان محمد شبعة

خناثة بنونة

ليسقط الصمت

توزيع :
دار الكتاب
الدار البيضاء

الطبعة الاولى 1967

إليها .. وإليك .. وإلى الآن .. بعد أن

تبعثرت جزئيات ماض لم تشهده كلمة ، وقبل

أن يتمخض صمت الفردوس عن كيان مارد ..

اهديه ..

الصمت المحزن ..

١

المناديل، والأسلاك ، والممر الغائر الأخاديد ، وجراحاتك..
كل ذلـك يهدم تراث الانسانيـة من القيم :
لا عدل .. لا حق .. لا هم .. لا شرف على الارض ..
ونسير .. مقيدين بصمت تفرضه المنطقة :

ـ هنا ، نقطة تلاقٍ بين القطاعين ، المحرر والمحتل ..
يجب أحترام الصمت ..

ـ ومن فرضه ؟

ـ الظروف .

ـ الظروف ؟!.. ثم أفكر بأسي :

هكذا علمت الظروف أهلي أن يتخاذلوا ، أن يسلمو بكل قيد مشروط ، أن يتناولوا نتائج الاتفاقات جاهزة ، فهى تطبخ فى قارة غير قارتهم ، وبأدمغة غير أدمغتهم ، ولغرض لا يحقق العدل لهم ، وهم يقولون بخنوع مطواع : الظروف .

ودبّت الريح المعولة بين المناديل ، فناحت ، كانت وراء السلك غريبة ، تصطفق أطرافها بسؤال :

ـ أين انتم .. أين العرب ؟

فرددت بحصيلة جولة :

ـ ماتوا .

فأعادت :

ـ أفى كل مكان ماتوا .. ألم يعد هناك من أحد حى ، يرفض سور «القدس» وسلك «بيت صفافة» ؟!..

ـ من بقى منهم ، يدعم السور والسلك من اجل أن يلفق وأقع بلاده ببريـنق مفتعـل ، غير عاكس لامكـاناته الاقتصادية .. ألا ترين ، هاته السيارآت الفارهة ، وهى تدوس بخيلاء كلّ صوت يمكن أن يعكس حقيقة .. ولكنى مع ذلك لا زلت أسمعه وهو يقول ، حينما كان يرافقنى :

ـ هذه العاصمة ، لم تكن شيئاً .. جهد المنكوبين حولها الى شىء .. أأعجبتك ؟

فانساب بصرى ، بلا اهتمـام أيضا ، يتسكـع عبر منحنيات ومرتفعات المدينة . ولم أملك أن أتكلم .. فانتشلنى :

ـ كيف رأيتـنا ؟

ـ لم أركم بعد .. يجب أن أرى ما وراء الحركة ، والمظهر ، والعمران ، والجريان الرتيب للحياة فى الدوائر والادرات ..

فحملق فى بلا عداوة . وصمت ، فسألته :

ـ ما هى مقومات الاقتصاد هنا ؟

وبلا مواربة أسرع :

ـ الصدقات !..

ـ والسيارات ، أليست بذخا لامعا يخفى واقعا منطفئا؟

ـ انها .. انها من تبرعات اللاجئين ..

وسكتت .. فلقد بلغت أن أدرك ، لكن ما أهمية ذلك.. ان الادراك ، والصمت ، والحديث ، انما هو طحن للزمن .. وكنت أريد من الزمن الآن ان يتمطط ، أن يبلغ وعيه ، على الأقل ، فى قضية واحدة ، ليكون فى صالحها .

ومن بين شفتين ترتعشان بثورة ، سال سؤال بمقت:

ـ هل ماتت روح المقاومة فيكم ؟؟

واجاب بصوت دامع :

ـ وحيدون .. بلا وطن ، بلا بيت .. بلا جنسية .. بلا ظهر حنون يحمى ظهورنا .. ومع ذلك ، ابدا لن نموت ..

فانياب النكبة لم تفعل سوى ان احرقت فينا الاتكال المثبط، وفتحت أعيننا على أن نعرف كل واحد بوجهه .. وكم أعلنّا عن وجود هذا المخاض ، ودفعنا من أجل ذلك صدورنا لأفواه مدافع اخواننا !.. وتنمّرنا عن أن نسلّم بالهزيمة، بالنكوص، بقبول الاندماج النهائي .. ان نداء التراب هو التسبيح الوحيد الذى يفتح عليه كل فلسطينى يومه وليله ، ولا يهمنا ، أن يسد هؤلاء فى وجهنا الباب .. ان يسلموا الفدائيين منا للعدو ، بمنطق المحافظة على السلام فى المنطقة .. فلقد قررنا أن نموت ، ولا يهم بأية مدية يكون ذلك ، فالتاريخ يفضح كل أسرار الجميع .. ان النكبة قد دمرت جيلها ، ولكنها لم تقهر الشخصية الفلسطينية فى سلالتنا ، وتلك فضيلتنا.. أن النكبة تتجدد عبر الاماسى والاسحار : مع العدو ، ومع حارسيه من الاخوان ، الا أننا لن نُقهر .. اننا من اجل أن نُرضى طلب الموت فى ذواتنا .. وحس الثأر فى أرواحنا ، فقد تطوعنا مع «الفيتناميين» لنتلمظ دماء المجد الاكبر للاستعمار ..

وتمتمت بشرود حزين :

ـ يُسلم الفدائيين منكم للعدو !! يعنى أنه ظهر حام للوجود الاثيم . وفكرت :

– أهلي مع انهم ميتون أيضا .. لو كانوا هنا ، لسحقوا هذا الوجود المفتعل، ولبددوا خرافة القوانينالدولية، ولانتشلـوا الحق من بين رنـين الدولار واهوال التهديد والمدمرات .. ونبهني :

ـ ومع ذلك .. فهذا .. منحنا ، نحن المطاردين ، فرصة أن نستقر بدياره ، وان يكون لنا بها بيت .. يجب ان نقدر له هذا على الاقل ..

.. وتدلهت نظرتي في الانسان العملاق ، وهو يُخرج من بين ركام الآلام والفظائع شعورا سليما يعلن عن انسانية الانسان الفلسطيني ، هذا الذى رأيت جهده العملي كيف يزرع سطح الارض الفقيرة بعزائم بشرية ، فيخصب ، ويعطى غلات لسد الحاجات ..

وتوغلت الرياح ، من جديد ، بين تلافيف المناديل ، وجاءت الى بسؤال ملحاح :

ـ ومع ذلك أين الآخرون ؟

ـ شبيبتهم لا تعرف عن القضية الا جزءاً من صداها .. فقليلا ما يرتفع صوت يحكى ، وأبداً لاتجد الشبيبة ما يجذر النكبة فيها لتتاطر ، فيها ، كحقيقة تهمها منالمحيط الىالخليج.

– وكيف ذلك ؟..

– لان الموسم الدراسى ينتهى بلا برنامج خصوصى ، والعروض السينمائية لا تسبق بعرض مصور عن الوطن السليب و..لكن فما جدوى ذلك ، فالوقت يتطلب جدية أكثر .. ولقد قلت لك انهم ماتوا .

وباباء لم يدمره الواقع ، زمجرت :

– قولى لهم .. انهم يتحملون مسؤولية انهم ماتوا .. أماتتهم الفرقة والاطماع والدولار وضعف شعورهم بقدرة أن يتموا وقفتهم دونما اعتمـاد .. قولى لهـم : ـ نحن ، لم نصنع المأساة .. فلقد خضنا معارك متعددة لوحدنا ، وهم الذين سحبونا عن الخطوط ، مدعين أنهم سيقومون بالمقاومة من أجلنا .. ولكنهم بنوا سور القدس ، مع أننا لم ننهزم ، أمام خمسمائة لغم يهودى فى ليلة واحدة بالقدس القديم .. وهذا السلك ، هاته اللعنة التى تفرق الام عن ابنها ، تضع الابن تحت سياط الزنزانة «الاسرائيلية» ستة أشهر ، لانه رد تحية أمه .. هذه اللطخة الكبيرة لفضح عارنا :: هم الذين صنعوها ، فلقد اشترينا قريتنا الكبيرة (بيت صفافة) بشبابنا : فأسفل كل شجرة يوجد ثمنها : جسم شاب قرر

أن يدفع حياته لان تسلم .. ولكن فى المفاوضات التى لفقوها، فرضوا علينا ان نتراجع ، فالقرية ستقسم ، وسيكون النصف المهم منها لهم .. وبذا أحنى (كشكول) فمه ، وقبل سطحها وهو يقول : لم نكن نطمع فى هذا .

ومددت بصرى : خط حديدى يؤكد أهمية النصف المحتل ، وقبله اقدام انسان عربى يصنع غذاءه فى شبر من الارض ، وبعيدا فوق الربوة صومعة يتيمة لا يستطيع ابناؤها أن يؤموها .. ثم خط طويل من عمارات لا يستطيع أحد أن يخمن الى أين ستنتهى .. وزفرت :

ـ كأنهم مطمئنون .. ان البنـــاء يعنى الاستقرار .. وكيف لهم أن يظنوا ذلك !؟

ـ الاوضاع ، والسياسات ، والتفرقة نمنحهم ان يفعلوا..

وجاءنى صوت جانبى آخر :

ـ انها بناءات عسكرية .. هى الدفعة الاولى من الاعانة الالمانية لاسرائيل بعد التمثيل الدبلوماسى المتبادل .. انها تهديد غربى صريح لأناس مبعدين .. وتهديد لكل القيم .. ومع ذلك .. (ولم يضف ، حرك رأسه المنحنى بانفعال ، ثم تمتم وهو يشيح بوجهه) زاروها ..

وبلا انتباه سألته :

ـ من هم ؟

ـ رؤساؤنا .

فسقطت فى ذنب لم اصنعه ، وسمرتنى تلك النظرة الجريحة فى هذا الحكم الحقيقى . وظل ينقــل بصره بين العمارات كاجرام ، وبينى كتاكيد أخوى لهذا الجرم.. ولاحظ دمعى فأضاف :

ـ لاول مرة تذرف عين مغربية .. فقبل مدة ، حضر الى هنا شخص كبير .. كانت عيناه صامدتين .

وهدرت بصمت ، وارتطمت وارتطمت وارتطمت بلا صدى .. واصبحت خارج ذاتى .. وكانت حتى روحى مهدمة .. والتفتُ أحملق فى نقب السلك .. كانت كل الثمان عشرة هناك .. كل الدموع، كل الايتام، كل الثكالى.. كل لعنة جنس .. كل خذلان رؤساء .. وكانت وراء السلك امرأة : فصحت بتضامن من لا وعيى وأنا أحرك يدى بكل ما يرعد فى من غليان محتج :

ـ سيدتى .. انه لا شىء ، أبدا لن يكون .

فارتعشت المرأة وأتت بحركة هاربة متيقظة أليمة ،

ثم احتضنت جدارا ، وأنت بحركة احتراس من راسها لتطمئن، ورفعت يدها بنصف تحية .. وابتلعها ما وراء الجدار .

ووجدتنى مقبلة على السلك كمن يريد أن يمزقه بأظافر وأسنان وجهد لا يملكه وأنا أهدر بشبه جنون منتحب :

ـ ابدا لن يكون .. ابدا لن يكون .

ولكن الصوت الحقيقى للمأساة كان يأمر :

ـ يجب أن نغادر المكان .. فلقد مزقت صمته .

✕

بداية الطريق . .

(2)

المدينة .. تنحشر بهوادة فى أعطاف الكآبة الوابلة .. وبسمنها الهرمة تنداح مقهورة على سطحها الوحل .. وجدرانها تتلفع بخرق قاتمة تسيل فاقة وتسولا ، والدكاكين ؟.. ثغرات فيها ، تلطخها معروضات رخيصة ، وهو ؟.. انسان يتمطى فيزحزح كيانه الفتى الكتل المتنافرة من على صدره ، لتصطدم هى وقدماه بجدران صندوق الورق المقوى ، فينكمش .. لتحكى انكماشته ألف رعشة تصدرها أرض مثلجة لجسم مقرور .

ويحتك صندوق الورق المقوى بالاسفلت ، فيتململ ليحتضن الركبتين المرتعشتين . ويمنحهما وهج دفئه ، ولكن استجداء الحرارة لا يتوقف .. فيظل الصندوق يتزحلق رأعشا مع انتفاضة الجسم المتجمعة فى القدمين .. ويلين .. ليسالم مد القدمين وجزرهما ، ويغفر لهما اصطدامه بالحائط وانضغاطه

على الاسفلت .. بل ، يحنو حادباً بحوافه وسقفه على رجلين كان يجب أن يكون لهما غطاء .

وتتغير سحنة السماء .. بوادر غضبة احتجاج تمسح عنها زرقتها ، وتلفها فى زمجرة قاتمة تهز كل النيام ، تفتح عيونهم لان يروا : أن يتكلموا ، أن يكونوا مثل السماء حين تعطى .. وحين تحتج .. وحين تكشر ،

ويدرك هـول الغضب ، الجالسون على الحافات ، والقابعون فى مغارة الدكاكين ، والنيام الذين لا يستيقظون حتى وهم يسيرون ، فيختفوا حين تهدر السماء فى غضبة مجنونة العويل والبكاء .. تصيح بصواعقها مستبشعة هذا الخنوع الآدمى ، وتذرف سيول حنانها من أجل هاته الجماعات المنزوية فى كل ركن رطب من المدينة الهرمة .

وينتفض .. الجسم الشاب الذابل تحت ركام من الخرق الملطخة بأنواع الاوساخ نهزه الزوبعة المزمجرة ، فيستل نصفه من صندوق الورق المقوى ، ويرمى بجذعه على الجدار ، ويمد الى الصندوق يداً تقرأ عليها ألف قدرة مقبورة ، ويدنيه منه ويسأل بصوت راعش :

ـ ألم تستيقظ بعد يا أحمد ؟!.. احمد ؟

فتتحرك الكتلة المقابلة وهى تجيب بشبه غضب :

ـ أتعرفنى كسولا ؟!.. فى وقتى المعتاد ، استيقظت .
ثم ، هاته الزوابع توقظ المكفنين لتجعلهم يهربون .. لكن الى أين سأفر أنا ؟!!.. فأنا لا أملك من المدينة أى مكان !.. ورفر ،

فأتاه الجواب فى أعقاب زفرته :

ـ حينما لا يكون للانسان أى مكان ، فان كل الامكنة هى مكانه .. هنا وفى قرانا التى لم تعد لنا ، وفى كل هاته المدن والطرق والمسافات التى يملكها غيرنا !..

فرنا اليه أحمد بتمعن ، وسأله بعجب :

ـ ما لك ؟.. ادريس !.. أتهرف اليوم ؟!، نحن لا شىء لنا ؟ أفتريد أن توهمنى بأن ما لغيرنا هو لنا ؟!.. مسكين ، ياشابا أصيب بالخصاصة حتى فى ادراكه ..

وسكت مفكرا ثم أضاف :

ـ أم أن شفقة قد أخذتك على حالك وحالى ، فأردت أن تنير حلكة نفسى بهذا الرجاء الكاذب ؟!..

فرد ادريس وهو يسوى الغطاء على صدره :

ـ كما تريد .. انما ، حين تؤخذ أرضنا منا ، وحين نتعب فى البحث عن عمل ، وحين تسرق منى حتى الخشبة

التى كنت أستعملها فى مسح أحذية الناس .. أليس من حقى أن أتوجه لما يمتلكه الآخرون ، أن أرى فى كل ما هو لهم شيئاً يخصنى ؟!..

ـ لا . لا .. ما هو لك لك ، ثم هناك ما هو لغيرك ،، يجب أن تفهم هذا وتحترمه .

فاستل ادريس عينيه من نظرة أحمد ، وركزها على الصندوق بجانبه ، وأجاب ، بعد ما رانت على فمه بسمة ذابلة :

ـ حينما أحترمه .. يجب على أن أديم على صندوق الورق المقوى هذا : هيكله ، وذلك لكى يظل يحتضن رجلى القادرتين على أن تسيرا وتجريا من أجل تحقيق شىء ما .. وهو ما لا أستطيعه ، فالصندوق كما ترى قريب من نهايته ، وأنا لن أبحث عن صندوق آخر لأفنى مع عجزى فى هذا الركن المضبب !..

ـ وما ذا تستطيع أن تفعل ؟!.. مغرور !.. لعل شيطانا قد مسك فأصبحت تفتح فمك عن حماقات مستهجنة ..

فتجاهل ادريس الرد عليه اذ سأله بتؤدة :

ـ أنسيت يا احمد ، القصة التى طالما سكبت لوعتها

فى آذاننا ؛ قصة أرضك التى لا زال «مسيو روبير» يتبختر فى رحابها ، لتأتى أنت لهذا القبر الخانق مع جرتك ، من أجل أن تروى العطش ؟!..

ولم ينتظر جوابا بل أضاف :

ـ أما انا .. فلن أنسى أبدا كلمات المرحومة والدتى وهى فى يومها الاخير :

ـ ادريس ؟.. تذكر يابنى أرض آبائك التى سلبها (الرومى) منا .. كن رجلا واستردها .. لكن ، ليس هنا ، فاذهب الى المدينة واسالهم عنها . وتأوه . لكن المدينة جعلت منى راكعا على احذيتها يزيل عنها نتف الوحل وأبخرة الغبار، ثم سلبت منى حتى الآلة الخشبية لتضمنى الى زمرة العاطلين..

وأين أرضى ؟؟..

فاستفام أحمد واقفا وهو يجيب بتجرد يخفى تأثره :

ـ لا تسالنى عنها ، وأخذ الجرة وكاد يسير ، لكنه توقف :

ـ اخبرنى .. مَن علمك أن تتكلم ؟.. قبل مدة ،

لاحظت تغيبك عنا ، ثم تعود صامتا مغضبا تجيب على كلامنا بشرود مفكر !..

فارتسمت على وجه أدريس بسمة مكدودة وأجاب :

ـ الحاجة !.. الحاجة يا أخى .

فصاح أحمد وكأنه لم يسمع :

ـ من علمك ؟ قل .. انك حيرتنى .. أحس آن عذابا جديدا سيـُخلق من أجلى . أجبنى ..

فأزاح ادريس يده عن رأسه ورد بجدية :

ـ لست أدرى من هو المعلم الحقيقى .. انما هذا ما سمعته ووعيته عند جماعة مثل جماعتنا فى ركن جانبى من المدينة .. لعل هناك من يحدثهم ؟.. انما ، هكذا يتحدثون ،

فحملق فيه أحمد بمقت ، وهو يراه يصمت كأنه كان يريده أن يتابع . ثم انسحب ، ليسند بحركة شاردة جرته الى كتفه ، فتحملها ادريس ، تلك النظرة ، وقام يجمع أسماله فى صندوقه ليقبع بجانبه وهو يرنو الى الجثث المستلقية أو التى فى طريقها لان تنتصب ، فيرى معها السؤال الذى يثقل عليه وعليها :

ـ والآن .. ما العمل ؟!.. ما العمل ؟!،، لا شيء سوى التسكع بين منعطفات المدينة ومنحدراتها بحثا عن يد تتكرم أو مدلل يطلب خدمة .. هذا هو منهاجنا اليومى ، نداوم عليه بصبر ، لنعود مع فاقتنا الى الزاوية المهترئة .

وأحس بغضب مقتدر يجتاح هدأة نفسه فيشعلها : يجب أن نفعل شيئاً .. أى شيء .. على الاقل ، من اجل أن يتغير منها جنا اليومى ، ثم انتبه :

أحمد يضع جرته بانفعال كـاد يهشمها ، ثم يدمدم ساخطاً :

ـ حتى الناس لم يعودوا يحسون العطش ليشربوا !..

فاستدرك أدريس غضبته وزكاها :

ـ لأجل أن يظمأ الناس يجب أن يفكروا فيك .. وهذا، كما ترى ، ليس مفروضا عليهم .. عليك ان تفكر أنت فى نفسك ، ما دام الآخرون لا يُدخلون جوعك فى تفكيرهم .. حينذاك يصبح التفكير متبادلا : يشملك اذ يشملهم .

فدارى احمد فهمه وأجاب :

ـ آ .. لقد غفلت .. فاليوم بارد ممطر ، يغنى الناس عن طلب الماء .

فرد عليه ادريس منكتاً :

ـ تريث .. سيكون نصيبك فى فصل الصيف أحسن : دريهمات معدودات وركن مظلل .. أليس كذلك يا المعلم أحمد ؟!

فغير أحمد وضع الجرة وسأل مهتاجا :

ـ اليوم .. أنت تلح على ايلامى ،، أليس كذلك ؟.. لماذا ؟؟..

فتريث ادريس قبل أن يجيب :

ـ ابدا .. اننى لا أفعل شيئاً سوى أن أوقظ فيك ما هو لك ، وبهذا تتفتت عنك تلك القشرة من الغبطة البلهاء، فتفتح عينيك لترى غير الجرة وغير الركن من هذه الدنيا الكبيرة ..

فالناع أحمد وهو يرد عليه :

ـ كل ذلك لن يكسبنى شيئاً سوى أن أتعذب .. فتعتكر فى عينى حياتى ، وينكشف أمامى عجزى ، وأفقد غفلتى الساهية عن حياة الزوايا والجحور .. وما ذا بعد ؟؟..

فالتطم السؤال بادريس وظل منتصبا ينتظر جوابا :

وما ذا بعد ؟؟ ما ذا بعد ؟؟ فرد بتصميم :

ـ أن تسهم فى أن تعكر الهدأة الخاملة فى الزوايا العفنة .. أن تشعل فيها بصيصا يكشف حقيقتها للحشرات التى تدب فيهـا والقامات المتعجرفة التى تمر بمحاذاتها متجاهلة غافلة تغذيها نشوة فجور .. أفهمت ؟.

وتلكأ احمد قبل أن يجيب هازئاً :

ـ علىّ اذن ، أن أكون مهرجا !..

فاحتد ادريس : عليك فقط ، أن تملك لسانك ، وأن تكسب اعتقادك بأنك انسان ، له الحق فى أن يعيش فى غير الجحر ، تنخره أدواء ورطوبة وزمهرير ..

فلانت أسارير احمد واقتعد وقال مفكرا :

ـ ولكنها مهمة شاقة .. أن يحاول المرء أن يكتشف نفسه ليومن بها ، ثم ليطالب لها بما تستأهله ، ذلك يتطلب وقتا وجهداً وتضحية ..

فتشجع ادريس لان يقول :

ـ ما دمنا لا نعيش لاى شىء ، فلمَ لا نبحث عن هذا الشىء ابتداء من ذواتنا العاطلة ، وأنفسنا الراكدة ، وقوتنا

المبددة فيما لا يجدى ؟.. تصور يا أحمد ، إننى أحس كأننى في يومي الاول .. بهجة لقائى بالحقيقة تستطيع أن تجعلنى أتحمل كل شيء .. حتى الموت من أجل أن أفهم.. أن اعمل .. أن أحقق لطائفتنا في هذا المكان وفى كل مكان ، حقها في أن تعيش .. فى أن يكون لها هى أيضا حقها فى أن تصرف طاقتها وقوة عضلاتها الى مشروع ، لكننى أحس القصور .. جهلى يتكشف الآن أمامى بشكـل ينغص ، غير أننى لن أستسلم .. وهو ما أريدك أن تساندنى فيه .. أن تحس نفس ما أحس : بقوته .. وبجلاله وعزمه .. لأفتح فمى وأبدد عقيرتى : أيها العراة.. أيها النائمون فى زوايا المدن الغافلة.. يا من تعيشون دون أمل فى التغيير : افهموا ..

ووقفا وحدق كل منهما فى الآخر .. ثم تبادلا بسمة ساخرة ، وخطيا خطوات ثقيلة ، واكد ادريس :

– لنبحث عن أمكنتنا فى العالم الباقى .

ـ تعنى عالم القلب !؟

ـ ليست فيه كل المجالات الممكنة . وانما أعنى عالم الانسان الذى لم يستيقظ بعد .

ـ كل شيء هنا نائم حتى الاعماق .

وبدا عليهما انهما يحاولان الافتراق ، لانهما أحسا بجدوى العراك المفرد . ولما اتجها ، كل في سَمْت ، رجعا بمحض صدفة مبيتة ، ومزقا ذلك الصندوق بحقد ، وكان ذلك بداية الطريق .

ضياع ..

بلا اهتمام قذفت بها الى الوراء ، ثم استدركتها بأصابعها .. تعيدها ، تنساب على الصفحة : جدائل رقراقة تطفح بجمال حقيقى ، وظلت الاصابع تتلهى فى لهو شارد .. بينما رجلاها تتحركان بانفعال ، تحكيان توتراً كبيراً . وتنبهت فاسترجعت كل الاوراق وأعدتها :

ـ عشر صفحات مرت دون أن التقط شيئاً !!.. وقلبت الغلاف لترميه بنظرة متفحصة ، ثم تمتمت بتذمر :

ـ انه هو .. كاتبى المفضل ، لم أسه عنه قبل !..

وانتصبت ، تقذف زفرة وهى تدفع بكل شعرها الى الخلف .. وتحركت :

ـ علىّ أن ابحث عن مكان آخر لضيفى .. ألِفتُ أن أزرعه بين الكتب ، فأنساه ، لأقتنى برهة راحة .

وواجهتها صورتها ، فتمعنت فيها .. ثم ابتسمت بلا رضى :

ـ حقيقة ان لى جمالى .. كما يقولون .. لكنه جمال يذوى .. يذبل فى تربته .. لا يُسقى ،، يكتفى بنفسه فى عبادة مطلقة متفردة .. أو نفور متشنج ناكر ؟..

وتحركت .. تملأها نشوة مؤقتة بجمالها ، بذلك الكبر العاتى الذى يقولون : انه يصيح من نظرتها . وفى الممشى التقت بها .. تدبُ فى حركات المشى الاولى ، فاحتظنتها .. تملأ وجهها بقبلات لا تكتسب حرارتها الا اذا كانت لاختها الصغرى .. فهى .. هى وحدها مَن تخفف عنها كل ثقل عمرها .. تنسيها النظرة القلقة التى تكتسح بها حياتها والعالم .. لتتبسط فى نظرة ابنة التسعة أشهر .

وكأم تهوى وحيدها ، وضعتها فى سريرها ، ولامست شعرها فى حنوٍ متدفق ، وانسحبت بمهل .. تريد ان تترك لها غفوتها .

وبالباب .. كالعادة ، اصطدمت به .. باللا شىء ،، بالفراغ .. فدمدمت باستياء :

ـ أصبحتُ نموذجاً يتكرر .. أقرأ ثم آمل قرآءاتى ..

أستكين فتلدغنى عقارب السكون .. أتحرك من هنا الى هناك دون أمل فى أن يهبنى هذا التحرك جديداً .. كل شىء ليست له الا لحظة ثم ينتهى لتبقى حقيقتى التى لا تتغير : اننى أتألم .. أتألم فى صمتى .. فى هرجى ،، فى وحدتى ،، ومع جماعة كبيرة تريد أن تأخذنى .. تلكم أنا ، الحقيقة الثابتة: الألم ..

الألم .. تجسد فأصبح أنا .. ألتقى به كلما طال تسكعى بحثاً عن طريق، عن هدف، عن غاية.. عن تبرير لكل هاته السنوات التى تكدست ورائى ، لتصيح فى احراج عنيد بخيبة كبيرة توجت بها عمراً متا كلا فى غير ما غلة ..

وجرت .. تفر من عذابها .. من تلاحق لأفكار سوداء كانت تضغط عليها فى حنق لا يبرحها ، لا يمنحها أجازة تعرف فيها معنى النشوة .. لذة الابتهاج ، وحقيقة المسرة ..

ووجدت اصبعها يحرك أرقاماً لصديقتها :

ـ آلو .. عائشة ؟

ـ ليلى ؟..

ـ ما ذا تفعلين ؟

ـ كنت أستحم .

ـ ما هو برنامجك ؟

ـ لا شيء .. وقتى لى . أأزورك ؟

ـ .. لا ..

ـ وما ذا تريدين ؟!..

– أن أكلمك ، فقط .. تصرفى فى وقتك ، طابت أمسيتك ..

ثم ارتمت يخنقها ندم ما :

ـ آذيتها !.. لمَ كلمتها ؟.. ألأقول لها اننى لا أريد أن ألتقى بها ؟.. ان أجرها الىّ فى صداقة حقيقية ثم اقذف بها بعيدا عن علاقة لا هى متماسكة ولا هى منتهية ..؟! لكن ما ذنبى ؟.. ما ذنبى ؟؟.. صوتها لم يعد يحكى لى شيئاً ،، جلستهـا لا تشعرنى بمؤانسة .. ففى تلاصقنـا وتحادثنا وضحكاتنا نظل مبتعدتين .. منفيتين فى وحدة أشعر بها وأخفيها عنها .. أأنافقها اذن ؟!.. لا ؛ لا ؛. آه لست أدرى .. لقد كفّ الاشخاص عن الاتصال بى جذريا ..

وأتتها رغبة ، فاستمسكت بها.. وأخذتها معها الى دولب يحتفظ بها هي نفسها .. يخزن عمرها الذى مضى ، يحفظها للآتين .. للذين تملأهم رغبة فى أن يطلوا على واجهة حياة .. وحركت أصبعيها، تلامس أوراقا مملوءة بخطوط غير منسقة.. ثم عثرت على الاخيرة .. فانكبت عليها تنهب حروفها نهباً.. لكنها لم تعطها شيئاً كما ألفت ، فارتعشت قبضتها وهى تراها تمسك بنفسها فى ورق رخيص ، سرق منها رغبات وأمانى ليضعها وراء مفتاح يخنق فيها رغبة التحقيق وعزم الوصول ..

وارتفع النداء :

ـ ليلى ؟ ليلى ؟.. عمتك تريد ان تراك .

فتأوهت بأسى غير مفتعل :

ـ عمتى تريد أن ترانى !!.. ما ذا تريد ان ترى فى .. قولى لها : لقد انتهت ابنتى .. اصبحت أوراقا ملطخة مخزونة وراء قفل كبير يركبه الصدأ.. انها ليست منكم.. فلِمَ لا تتركونها مرتاحة بعدمها ؟!..

وتكرر الطلب فازداد حنقها :

ـ دائما يخلقون لى علاقات ليست لى ، يحيطوننى بها .. فما ذا يربطنى بامرأة يقولون لى ، أنها : عمتى .. أتريد هى أيضا ان تزيد خيطا فى الحبل الذى يكبلنى .. اننى لم أخترهم أنا : أقاربى هؤلاء .. ولكنها أمى ، باستمرار تقول : هذه خالتـــك . هذه حفيـدة عمك . هذه احدى معارفنا .. وتلك ، كانت تدللك عند ما كنت طفلة لا تتهربين من الناس!.. وأنا ، مللت أن أعطيهم وجها ليس لى ، أن اصلب على وجهى بسمة تتملص .. وان أجاريهم فى سماع وحديث ومتابعة .. لا ، لن أراها الآن : عمتى هاته .

وبسرعة، كست جسمها بلا اهتمام، وخرجت، تسير، وتسير .. تقطع نفس الشارع مراراً ، تريد ان تفرّ من خالتها، من أمها ، من عمتها ، من جارتهم .. من كل أولئك النسوة اللواتى تريد أمها ان تنصبها امامهن فى الاطار الذى طالما بنته حولها لتحشرها فيه : وجهاً يجلب الناظرين ..

وعادت تحمل الى أمها عذراً يفتقر الى التأكيد :

ـ لا بأس ، اعتذرى لها باسمى .. كان على أن ابلغ عائشة محاضرتها ، فالامتحان غداً .

فتحرك رأس الام فى لوم صريح :

– أعرف !.. انك لا تحبين أهلك ، تفرين من لقياهم.. كلهم يقولون هذا ، يتذمرون منه ويصفونك بالمتكبرة ..

ثم اندلعت ، فجأة ، بانتقام مدين :

ـ من أنت ؟!.. من تكونين ؟.. آنت كسائر البنات وكفى ..

ولم تعد تسمع شيئاً ، كانت أمها تتابع فى اصرار .. بينما هى تحتج فى صمت:

ـ لا ، لست متكبرة بالمعنى الذى يحددونه هم ، للكبرياء .. أنا أقرب منهم لمن هم أدون ، لا أتطلع مثلهم الى طبقة أرفع ، أحس قربى ممن يحتقرونهم .. وهم ، لاجل أن أسكتهم ، أعطيتهم مرارا واحــدة ليست أنا ، تماشى هرجهم العاقر ، وتسليتهم المرفوضة من أنا الحقيقية ، فلم أظل مزيفة كلما لقيتهم ؟!..

وقامت تترك لها كل المكــان .. بينما صدى صوتها يلاحقها :

– مــن تكونين .. أنت كسائر البنات .. وكفى ، فترد هى فى احتجاج صارخ مدفون :

ـ لست كذلك ..لست كسائر البنات .. أنا أخرى لا زالتْ لم تصل بعدُ الى تلك المرحلة .. لم تضع عندها رحلها فى استراحة خاملة ، تجنى عندها غبطة مشاعة .. أنا أخرى لم تعرف بعــد من تكون .. أعانى عذاب زيادة ؟.. عذاب نقصان؟.. لاظل أبحث عمن أكون، فمثلهن أظهر .. بصوتهن الرقيق المتلاشى أتحدث .. مثلهن ألبس مع اهمال فطرى ، ومع ذلك فَلَسْتُهُنَّ .. أنا واحدة مرفوضة من دنياهن الى أخرى لم تمتلكها بعد ، أعيش بلا انتساب .. فى انفرادية هوجاء ، لا تمكننى من أن أقوم بكل دورهن .. ومع ذلك .. فمن أكون ؟ ويزمجر السؤال من كل الزوايا .. من كل الاشياء .. من كل صمت ، ومن الكتب المطروحة فى اهمال على الارض .. والقلم المنبوذ على المقعد .. والبذلة المكومة على الفراش .. والاغنية التى أرادت ان تخنق بها السؤال .. ولكنه يظل قائما :

ـ أريد ان أقوله لأمى عند ما أقول لها : اننى لست هن .. أنا نموذج مغاير يعانى خللا ما ..

.. وجاءها صوت ، مؤخرا :

ـ آلـو ؟

كـان الصوت لم يستيقظ بعد .. فسكتت ، وفكرت بندم :

ـ لمَ أتلفن له فى هذا الوقت ؟.. ألأسأله من أنا .. أم لأقول له : اننى لست ككل البنات .. دونهن أو لا أدرى؟.. أو لأشكو اليه بياض ليلة فظيعة ..

وعاد الصوت يسأل بحنق :

ـ آلو ؟ ، من ؟

ـ أما زلت نائماً ؟! يكفيك كسلا .. ألم تسافر بعد ؟

ـ آه ، ليلى !.. لم أعتد سماع صوتك .. وبالاخص فى هاته البكرة .. كم الساعة ؟.. حسناً تفعلين ، سأسافر قريبا .

وبغصة اضافية أجابت :

ـ لا وقت هنا ..

فتساءل الصوت بجذل :

ـ ولمَ ؟

ـ لكى لا نضيف قيداً .. تظل سلاسله تطقطق كل

ثانية ، تعلن عن عبوديتنا .. عن خضوع آخر لنا ..

ــ ولكن ..

ــ مع السلامة أذن .

وأقفلت الخط ، كان صوته نائما .. كما هو دائما ، لا يستطيــع أن يستيقظ ، ليوحى بسؤال .. بجــواب .. بعون ما ..

وسارت بسؤالها المتعب نحو كل الزوايا .. تبحث عن متنفس :

ــ من أنا ؟.. لست شيئاً !!.. لا أملك ما يُوجِدنى ، حتى الحاضر ليس لى ، فهو لا يملأنى .. والمستقبل غائب عنى ، يسحرنى بعذوبة وهم .. فأرنو اليه ثم أتركه فى رفض لا يبالى .. فكــأن لا شىء فى هــذا العالم يشدنى .. والأخريات ؟ البنات .. يمتلكن شيئاً .. يتربعن فوق ناصية لحظة ويُعلنّ انها لهن .. فى عمرهن لحظة ما.. وما ذا لى أنا ؟.. التيه ، والعذاب ، واللاستقرار ..

وتطلعت الى صوت أمها ، المنسكب اليها من أعلى وهى تراها تنصرف :

- الى أين ؟

- الى لا مكان .. ابحث عن صوت أعود به اليك ..

وملأتها كل الوجوه .. بيسماتها ، بعبوسها ، بتطلعها.. بلا اهتمامها .. بصوت المرأة الذى انساب فى أذنها ، يحكى لها قصتها : قصة أمرأة عاشت تجربة صنع نموذج لها لأول مرة .. فكانت ، والحافلة تسير ، تتعلق بهيكل الكلمات من صوت جليستها .. بفمها وهو يرمى هاته الهياكل فى عفوية بسيطة .. بنظرتهـا وهى تحاول أن تسانـد هاته الهياكل المهدّدة فى مضمونها .. باشارات من يدها ، وهى تستعين بها لتوضيح الموقف .. وكانت تهبها كل بصرها لتبتلعها : بساطة تملك راحتها ، وتوفر عن نفسها كل احزان سرية .

ولوحدها .. أقتعدت كرسيا جانبيا ، فى مكان شبه خال، وتركت بصرها يبحث .. ينقب فى غير ما الحاح .. كانت قد فقدت كل رغباتها .. كل ما كـان يملأها ويثيرها كان قد استكان ، وأضحت وجها لوجه ، أمام السؤال الكبير :

- كل ما مضى من كنت بالنسبة اليه ؟.. انفعالا ساخطا انطبع على بعض الصفحات فى اسوداد قاتم .. وهذا المدى

المنساب في قدرة وقحة ما ذا طبعت على سحنته ؟.. عمري تآكل ، وهو ، هو ، بلا تغيير .. بلا اهتمام .. بلا خفقة أسى على الانسانة الضائعة بلا أدنى معرفة .. يحكي صولة لم أظفر بها .. لتحفر قدماي على جبينه قدرة انسان .. ولا شيء الآن .. عجزي وأنا .. نتكشف أمام بعض ، كلما أعلنت هاته الاستمرارية عن نفسها في انطلاقة لا يحجزها أفق ما .. هي ، تتابع حرية لها ، لأظل انا .. أنا البشر ؟؛ مربوطة الى وضعي الذي ألبس لي قبل يوم مولدي .. أعاني فشل كل حركة تمزق اوصالي .. متانة اعصابي .. هدأة نفسي ، وعمراً يعيش خصاصة كبيرة معي ..

ولمَ كل هذا ؟.. قالت هذا وتحركت في احتجاج ، تسير في شروورد تام : لمَ اختير لي هذا الدور؟.. بلا جنسية.. بلا اعوام ثرية .. بلا انفعال خصب .. بل حتى بلا هدأة بليدة .. وانما بتأرجح فظيع بين فوقية وتحتية .. في انتكاسات صاعدة نازلة لا تنتهي .. تقصر يدي عن رسم خط في امتداد السماء ، ورجلي عن حفر ثلمة على جبين صلابة الارض .. ومع ذلك أمي تقول : أنت مثلهن .. أنت واحدة وكفى .. وتتغافل عن رؤية هذا الانفصال الكبير

الذى يبعدنى فى غربة موحشة عن الجميع : عنها .. عمن تحيطنى بهم ، وعن نفسى ..

وتعود اليها نظرتها .. تحمل اليها شكل الحافلة التى تتحرك .. فتقصدها .. تريد أن تعود من حيث أتت .. بلا صوت ، بلا جواب .. بلا أى شىء من ادراك ، لتقبع فى البيت مع أمها والسؤال ..

وبقرب الحافلة عدلت :

ـ سأقصد مركز انطلاق الحافلات بالمدينة .. فمن نقطة تلاقيها أتشعب أنا ، فى اركان متعددة .. أسأل أحجارها وأشجارها وكل المارة بها .

وظلت تنساب مع الخطوط المتغيرة.. فى اتجاهات كثيرة، كما لم تفعل من قبل .. تقصد أماكن لم تعرفها ، وطرقات لم تطأها ، وتقوم باكتشاف لم تنجزه من قبل .

.. وعلى الأريكة ارتمت ، بلا تحية . تضع كل تعب جولتها فى مكتب أختها والآخرين . وتلاقت الأعين فى عُجب مستفهم .. يستنكر زيارة غير منمقة كما يألفـون .. ولم تهتم .. كانت قد حققت انفلاتها من جل الشكليات التى يرتدونها قبل أن يظهروا .

ورفعت نظرتها المُوهـَنة ، فرأتها .. عيناً غير بقية العيون ، لا تحتفظ مثل الاخرى بعجب محتج ، بل ، بادراك حقيقى .. فتعلقت بها .. تملأ كيانها بصوتها ، بالسكوت الصاخب بين رموشها .؛ والجواب الصارخ من حنوها :

ـ أنت ؟.. متشردة بلا مكان .. المتشردة فيك تحب تشردها ، لانه الوسيلة عندها الى غاية .. تجهل الغاية وتتعلق بها .. تريد أن تخلـق بذلك تبريرا لوجودها .. والتبرير لا وجود له .. وهى تدرك ذلك ، لكنها مع ذلك لا تتراجع .. تريد أن تقول فى وجه اللامرئى ، ان ببشريتها قدرة متحدية على متابعة العناد .. وهو ليس عنادها وحدها ، ولكنه عناد كل هذا الوجود الفارغ لبشريتها .. وهى بذلك ضحية ، تقطر جراحاتها وتسير .. تشق دربا لا ينتهى .. لكنها شاءت ذلك عند ما رفضت أن تتاطر كالاخريات ، فى دور تقليدى مريح .. المتشردة فى أعماقها رفضت الاطار حينما أرادت لها أن تتسكع فى دروب الوجود .. تعلن احتجاج كل نوعها على قدرته العاجز أمام القدرة المكتملة .. والدرب طويل موحش .. فى سلوكه تتحقق انفراديتها .. أنها ليست امرأة وكفى .. بل هى فى ذلك ، بطلة ومهزلة .. حينما اختارت

أن تجسد هذا الوجود الفوضوى لكل جنسها .. لكنهم هم ، لا يرون الا الفتاة فيها .. لا يلحظون حقيقتها : المتشردة فى أغوارها ، حين يريدون منها أن تتشح بوشاح متداول لتسلك الدرب القصير .

وهنـــاك غيرها .. من يعمر قلبـــه بؤس كبير بعتمة مصيره ، وعبثية وجـــوده ، ويتحدى .. يتحدى نفسه .. يرفضها فى اطارها الحالى الذى لم يصنعه هو ، ويريد لها ما لن يكون أبدا .. وبذلك يعيش غربة تامة عن كل حياة مفتعلة فى غيره .. أو بين جوانبه ..

وسكتت العينان عن الشكوى لتصبح بشىء آخر .. بصدق رغبـــة فى رفقة طريـــق .. **تخلط الخطوتين وتنزف الدمين ، وتمزج بين مهزلتين اثنتين فى موقف حاسم لرجل وامرأة أرادا ما ليس يكون ..**

وقال لها بعد أن رأى استكانتها :

ــ لست وحدك .. فمثلك أنا ، عامر بمأساتى ومأساة كل البشر غيرى .. فلا أنا تحملت كل مواقف بحثى فحققت شيئاً ، ولا أنا انغمست فى سهرجة دور ينيمنى ويوقف

خطوى .. وانما أنا ، ذلك المنطلق الى لا شىء .. والمصر مع ذلك على انطلاقته الغامضة .. وهو بذلك يحقق على الاقل .. تفاعله فى حياة عاديتها تميت كل تفاعل حى . وأنت ؟

- أنا ؟..تلك الغربة التى انحشرت بين حياة الناس لتتعذب بانفصالها ولا انتمائيتها .. ركب فى كل تطلع البشر وهوسهم الى الوصول، فاقتصرت بحياتى على اللعبة.. اريد ان أتمها كما لم يتمها احد غيرى، لأعلن، أى انتصار للجنس بواسطتى . وبقيت أتابع .. أطحن اشراقة نهارى ، وأحلام ليلى .. وأفتت كل جهدى فى المسلك لوحدى .. وأنا أغذى رغبة تجسدنى وتعطى لعبورى فى هاته الحياة أثراً ما . وأحيانا يركبنى هوس .. هوس فظيع ؛؛ يحللنى من لحمى .. من الدم فى شراييني ، ليحيلنى الى ابراق .. الى اشراق ؛؛ الى فكرة .. الى كلمة .. الى رعشة تصيب كل جوانب الكون المدرك .. فأشعر بعد ذلك باننى قدرة .. أنا أيضا قدرة .. تحللت من وجود محدد الى آخر مطلق .. يؤكد لمسته وانتفاضته .. ولكنى لا أستريح .. فبين انتفاضات مستمرة أتنقل .. لا راحة .. لا جلسة .. لا سكون ، دون أن أدرك من أنا ..

وبلوعة باسمة اجابها :

- انت.. انت شرود واع يريد ان يعانق فى تلفه ، حقيقة ما .. فيفنى فيها ليبرهن ، ولنفسه اولا ، انه حقا عبر هذا الممر : دنيانا .

وبرغبة ملحاح سألته :

- ومتى ذلك ؟

- حينما نبدأ المرحلة معا ، يملأ كل منا الآخر ، فى الجولة الطويلة، لكشف نتيجة قلقنا المتشرد.. فنقولها لهم ، لكل الآخرين ..

فقاطعته :

- واقولها ايضا لأمى .

ودون ان يدرك .. اكد :

- نعم ، لتقوليها لها .. ولى .. ولنفسك ،، ولمن يأتى بعدنا .

عاصفة من عبير ..

أنت .. يامبخرة ندٍّ تنعش تراكم السنين فى عروقى .. تذيبها .. تحيلها الى هنيهة ضائعة فى خضم نشوة .. لما ذا ؟.. لما ذا تسبلين عليك أردية مللٍ وتمضين .. يسحبك من عالمى المعربد نداء يجلل فى نظرتك عالمَك بالضياء .. فتخلفين لى .. وراء قضبان صمتى ، فجيعة انسان يحتضر ..

كنت أقطن فجاج السلام .. وامرح بين أعطاف الهدوء .. وأتجرع دقائق عمرى بغصة خفية .. وكنتُ واضحا كقماءة ، ساكنا كجليد .. موزعاً بين أدوار ليست لى ، حتى ذلك اليوم ، حيث انشق الافق فى رقصات همجية الوقع لعاصفة من عبير .. اكتسحتنى ، وزعزعت كثل الصقيع وفجرتنى .. فيها : أغرودة تحكيها السواقى والخمائل والاصائل والاسحار.. فعرفتُ فتنة العذاب ، ولدغات السهـاد .. والغيبوبة على ساحل وجود ساحق السعادة ..

وتذهبين ؟!.. تخلقينني ، وأنا قد استحلت الى وترٍ جاهز تستطيع أناملك ان تدغدغه فينسكب منه لحن ، يتعــالى .. يتعــالى .. فيحرق وجه السماء فى لقاء صاعق الشوق ، وينحدر ،، يلين .. ينسكب .. ليستحيل الى همس فاترٍ لانسان يتهجد .

الماضى .. كله يشع من حولى .. يرمينى فى لبه ... فاتشبث ، ولو بخصاصته بأنك لى : وهماً حلو التخدير .. وأنسى أننى من كنت .. وأتعلق بمن انا .. وأفقد صوتى .. أكرهه ، حينما تستحيلين فى مسامى الى شدوٍ حنون ، يزرع قلبى بالنور .. فأهشم ذلك الصوت .. انه نعيق غرابى فحسب ، كتهرب الناس فى حزن انسان مخصوص .. ومنحهم كلمات قائمة السطح ، وأفنى فيهم لذائذ النصر والمغالبة والتذوق ، حتى كان صوتك .. فعرفت مباهج خفيــة .. واشعاعات عطاء .. وعذوبة حلم ، حينذاك تخليت عن كل ما كان يحشرنى فى محيط ثلجى الاطار .. وصبأت .. ألعن كل رعشة لا تذيبنى .. وكل نظرة لا تصعقنى .. وكل همس لا يحملنى الى متاهات الاسرار والنشوة والحزن ..

أتذكرين ؟.. وأنا أنمنم لك الايام بالحكايا ، وأملأ لك كأسك بنبع عيونى .. كنت أشدك الىّ بذلك الحبل الذى

لم تفهميه ، لانني رجل .. يريد أن يهزم المرأة .. أن يمتلكها ،، ان يعبدها بكبرياء عريق فى دمه .. ولكنك كنت تفسدين عليّ كل دورى ، تهملين آدم فى ، وتحيلينني بسذاجة الى مجرد هيكل يملك حضوره في صوته .. لا يتعداه ، بل ، أن يضبطه فى مراقبة تستر عنك جحيم العواطف التى كنتِ تلبينها .. فاطيع ، وأركن ، الى المقصلة ولا أتكلم .

ولكنى الآن فقدت مرافئى.. فانزلقت أمخر عباب الهلاك.. وأعب من سعير الاشواق .. وأبيـد ساعاتى فى منعرجات طريقك .. وأذرف دموعى وأتكتم ،، عنك أنت .. يالعنة محببة تلاحقنى وترمينى بعواصف من عبير .

النداء يتفجع، بعيداً، بعيداً.. فى أسطورة حياة مُجهضة، وظنونى .. وترياق أيام ..والاصائل ،، وتفاهاتك ،، والتحنيط الصخرى لمشروع سعادة .. كل ذلك يعربد فى بصرى وأيامى كشياطين منتصرة .. مستهترة . وكبريائى ، تلفعنى بطلاء رجولة تصارع غلبتها ، وأنتِ ، فى أطراف هذا البصر.. تيهاً ضالا بين أذرع الافق ، تتعثر أقدامك بأكداس بحوث متجذرة فى أعماق العصور .. وتمضين .. كذلك المارد الذى ما يفتأ يغالب هلاكه ، ولكن أجفانه ، رغم نصرِ قزحى الاشكال ، منداة ببداية فشل محتوم ..

الاعصار يزمجر .. وأنا بين طياته قد أضعت' توازنى :
مجرد ورقة مجففة ملطخة ببصمات قضية أصبحت .. أتقلب
فى هبوبه محمولا الى لب فجيعة حادة الناب .. تاركاً دور
الانسان النبيل الرزين الذى تعرفين .. من أجلك أنتِ ،
يا امرأة .. يا خطيئة اولى .. يا فرصة ضيعتِها علىّ وعلى
أبى .. ويا تلفاً فظيعاً كتب علينا أن نعرفه .

العملاق فىّ ينهزم .. هذا الهيكل الذى طالما استشعرت'
نظرتك تمسحه لتتعداه الى صوتى ، ووجهى .. ذلك الذى
تستكينين اليه كواحة .. كم مرة وددت لو أمنحه لك ..
لو أنبتّه فى رعدتك ظلال خميلة .. لو أحشرك فى حضنى ،
لتعرف مراتع الرجولة .. حضانة العمالقة .. ودفء الاحضان ،
ثم .. لاكون أخيراً آدم السيد .. ولكنك أبدا غافلة ، تنتفض
أطرافك تحت سوط عذاب ، وتنغص مباهجك فجيعة أزلية،
ويملكك صوت سخيف الرنين .. لان تشدى رحلك فى جولة
الانسان الضائع أبداً ..

.. قوليها .. قولى .. أية كلمة ،، ياخمولا لا يتحرك ..
ويا أطباق فولاذية لعاطفة لا بد أن تثور .. قبل أن تذهبى ،
قبل ان تسجلى أغلاطاً أكثر .. افهمى .. امسحى عن نظرتك
غشاوة الحزن ، وامتلكى بصرك ولو مرة .. فسوط الصمت

يخنق حنجرتى ، وتموجات العبير فى الداخل تستكنه أسرار صمتى .. وأنا لا أملك أن أتكلم .. ولكننى قد سجلت تفاعلى كبشر .. كانسان طافح بالتيارات الاستوائية الهادرة.. كأمل مجنون فى أن أمثل دورى .. فهل انت تفهمين ؟..

☎

الموت والورق المبتل ..

وتزيل نظرتك عن كل قتامة المدينة الهرمة :
في الاسوار العابسة .. والدكاكين المكشرة ..
والوجوه الكالحة .. والاسواق المكتظة بالحيوان والبشر
والازبال ، وتهب هاته النظرة الى أعلى .. تأتيك بومضة
جمالية من مدينة القبح .. ثم لا تملك الا أن تسأل :

ــ لمن هذا ؟

ــ له ، للآخر ..

ولا تعجب ، فالعجب ان تفعل : لان الأمر مألوف .

وتظل تتمعن ، مسحورا بجمال كل المدينة المتجمع هنا ،
وتنبهر ، بروعة الزخرفة .. وسحر تناسق الاعمدة ..
وقزحية مضبوطة على الجدران .. وحديد صلب يتعانق في
تشابك لين .

وتنتبه : حفنة من رائحة عفنة تزكم أنفك ، فتلمس

الانف فى حركة سهو تحميه منها ، وتظل مأخوذاً بكل البناية، لكن العفونة تلح .. تلح .. فى اعصار يمحو كل شىء سوى الزاوية العفنة عند أسفل المبنى الجميل .. فهناك .. هناك تتكوم كتلة معطلة غير قابلة للاصلاح .. وتدب نحوها فى خطو متطلع .. فهناك آدمى يفقد شيئاً ما .. وبجانبه تدرك ان مرحلة الفقد انتهت ، حينما فقد قوة المشى والأنين وامتلاك زمام أجهزته.

فالورق .. ذاك الذى لا يملك سواه كوطـاء ، ابتل بسلسه . وعيناه .. نافذتاه على العالم ، انغلقتا فى ذبول مزعج من رائحة كريهة من أسفل نصفه ، ورجلاه .. عطلهما الفقر والجوع والمرض عن الاحتجاج فى حركة ملحة لتحقيق شفائه ، وهيكله .. اطـار عظمى ينتفض لوخزات الألم فحسب ، وملبسه .. بقايا جلباب استحيا أن يتركه هو الآخر ، فلم يتمزق كله .

وتسأل عنه .. فيتطوع احدهم ويقول :

ــ هذا ، الشريف احمد ، كان له عمله : يبيع النعناع فى دكان صغير بجانب نافورة مياه عامة .. وكبقية الآخرين الذين لا يتوفر لهم الدفء الكافى فى شيخوخة مجهدة ..

فقد أصيب بالسلس ، وأخذه البعض الى المستشفى ، ففيه يتوفر له العلاج والفراش والغذاء والدفء ..

ويسكت الفم عن الحديث .. فتلح عليه أن يتابع ، فيفعل :

ـ هو قال : انهم تركوه .. أياما لم يسألوه ولو عن مرضه ، كانوا فقط ، يستفظعون عدم ضبطه لمخرجه فيلعنوه بل يضربوه فى ظلم وقبح .. وتحمّل ، فهو قد اعتاد الاحتمال من وقت ما اهان فيه الفقر كل كرامة ضرورية .. وانتبهوا اليه قليلا ومنحوه حبوبا وبعض حقن .. ليومين فقط !!.. لينهوا كل ذلك بتقرير حكم :

ـ اخرج .. لا علاج لك ..

وتطن الكلمة فى أذنيك لتصطدم بجدار قلبك فتحس انفعالا هائلا ، وتغيب كل الاشياء عنك لتبقى ، أنت .. وهو ، والرائحة ، والمبنى الجميل !.. وتنكب عليه فيتعالى من صمته ، من عفونته ، من ابتلال الورق من تحته :

ـ اخرج .. لا علاج لك !!..

وتنتصب ، بغيظ له كل قدرة الابادة .. فتطالعك

البناية ، تلك التى تعرّى جمالها عن قبحٍ حقيقى يعلن :

ـ اخرج .. لا علاج لك !!..

تصيح جملة الطرد ، من الزخرفة .. من الفسيفساء ؛. من الألوان التى كان لها جمالها قبل لحظة .. من الترف النهم الذى ابتلع أغطية وأغذية وعلاجات لكثيرين .

وتسحب نظرتك البرمة عن الغنى المطل فى كبر متعجرف على عذاب بشرى .. يتكوم فى عجز كامل ، وتسأله :

تريد ان تعثر على شهية ممكنة له ، فيأتيك الجواب من بعيد :

ـ لا شهية له .

فتتأكد ، لقد فقدها : شهيته ، حينما استله اولئك الآخرون من فراش المستشفى وركـزوا فى مسمعه يأسا فظيعا : « لا علاج لك » لقد قرروا مصيره فى يومين ، لانه بلا عشيرة .. بلا وجاهة اقارب .. بلا وسائط .. وبدون هدايا ..

وتتذكر : البناية التى غزتك بطلعة بيضاء عند مدخل

المدينة ، فاستكنت اليها وحكمت اذ أنت تقرأ :

« مركز الصحة العمومية » : ان لها دورها ، فهي تعلن عنه ، في أعتداد مطمئن .. لكنك وانت تنظر اليه ، تتساءل بحقد واع :

ـ وهذا ؟!

فتجيب : هذا ..!! لان لا دور لها ، فهى أيضا مركز للاستغناء ، وكفى ..

ـ السيد احمد ؟.. السيد احمد ؟..

هكذا تلح أن تسمعه .. ان تدرك مقدار ما تبقى له من الحياة .. فيبذل جهداً أخيراً لئلا يرفع نحوك سوى بصر مضبب لا يحملك اليه كاملا .. فتحس عجزك عن تحمل كل ما يقوله لك البصر المحتضر : يشكو اليك تمزق أشلاء فى وجع السلس .. ويخبرك كيف طردوه من البناء الذى قيل انه للجميع .. ويلح عليك فى أن تتمعن على ما يقتعد : الورق الذى ارتوى حتى أسال ماءه تحت الطوار .. ويُشهدك على حياة الانسان المدقع هنا .

ثم ،

ثم ينغلق البصر الشاكى فى ارتماء منخذل للهيكل الواهن على الورق المبتل ، فى حين يتفرقع فى كل كيانك :
ـ مات .. لقد مات ..

لو أبتسم ..

الصحون .. وأسطورة ماض وأنياب الغيرة وكل المدى تنغرز في أضلعي .. ووجهك .. ذلك المبرقع بحياء عذري ، تمحوه أكتاف امرأة جديدة.. التقطتك مطروحاً في المدى الاخرس النكد ، تعيش بقايا حكاية قلب .. ولا ككل القلوب كان .. زلزال مدمر هو .. يعيش رعشة دماره بعنفوان طاغية ، ويسكنك نطفة بدئه انساناً يمتلك بدائية آدم .. جدك .. ذلك الذي تبكيه الرؤية والحلم والوهم ، وأمضغ .. لقمة فقدت زلالها الحلو وأتصورني .. أمضغ لحمها .. افتته .. أطرحه لمناقر نسرية اعتادت الافتراس من عهود .. ثم أحررك .. من قامة هوجاء تخفيك عني وتهيئك لان تعب رحيقك بنهمها كامرأة .. لان تفترش ليونة الاسى في اطرافك.. في المشية العملاقة لانسان يملك أن يكون ..

وأتطلع .. فاختصر كل الوجوه في وجهك ، ويفجعني

أن أجدك قابعا فى الظل .. تقطر عيناك حيرة بكراً وانت تغرس نظرتك فى الاخرى .. لعلك كنت تقيمها ؟.. تجدها سهلا لم يملك قط ربوة التعذيب .. ولا اغراء الارتحال .. ولا فعالية الألم .. فترتاح ، ففى منخفضه ستبنى صولتك كآدم الصغير .. كبحار يغرس حربته فى الشطآن المهجورة لجزيرة الاقزام ..

وهاته المرة .. أنا كنتُ أنتَ .. بكل عجرفات شخص وعيتُ أغواره بين أقبية معبد شهد أروع فجيعة فى حكايا الصمت .. أردتك ألا تكون ، أنت البطل فى ظنى ، من يقبع فى ركن خامل الهدوء ، يمتص صبابة طفوليةً فى نكوص مذل عن تجربة هو.. ذلك الانسان الآخر فيك، الذى كان يملك حربته وعصى التجوال كبطل من اجل جزيرة الرعب..

وأعود .. كعبرة محجرة فى جفن الانسانية من قرون.. تذوب هاته اللحظة .. تنحدر .. فأغرق فيها وأتطلع اليك ، وأنا أغالب فيك كل الظنون .. ولكن صورتك بالامس تتضخم.. تتضخم .. وأنت فى المسلك الطويل تهب مشيتك لغيرى .. وخفقة مفاجئة وجلة فى رجليك تشعرك بالذنب ، ولكنك لا تفتأ تسير .. ولا أفتأ اغرق .. ولا أدرى الى أين ؟..

الى مرتع مزهر .. الى قبو دافىء .. الى ركن قصى يخفيك عن نظرتى ..

وأمسح عرق الغيرة عن جبهتى وأمقتك .. أنت ، الانسان الذى زرع غطرسة امرأة فى دربه .. ثم ، ظل يضرب على ربابه أنشودة الحزن الازلى لشباب يئن .. يتلهف .. يتفتح وينغلق فى بؤرة غليان تشع منه أنواره ، ولكنه أخيرا ينهزم .. كمخلوق خرافى يكتشف حقيقته .. انتهاءه عند مرفا أنثوى واطىء ..

وغير بعيد ، تهدر كلمات طرية .. تتسلل بليونة أفعى الى عقر منفاى .. ترمينى في أحبولة صوت .. فأود لو أقع، لو أغرس رأسى في حضن ما .. أى حضن .. وأذرف عبرات امرأة تغار ..

وأقبض على النداء الهامس وأتطلع الى مصدره بشجاعة فجة طارئة .. انه رائع كما لست أنت .. ولكنه واضح بلا لذاذات أسرار ، مدفونة فى التجعدات الرقيقة حول الفم ، والارتفاع الشاسع فى الجبهة العريقة كمجد .. والنظرة الغامضة .. تلك التى تشدنى اليك ..

وأين هى ؟..

غموضٌ فيَّ أصيل يستيقظ .. ليظل يلاحقها فى كل رفَّة عين .. على منبسط كل سحنة .. وبين ثنايا جميع الاسرار : حتى سرى .

فقبل مولد هذا اليوم كانت لك .. وكنتُ أمسك بها، تتزحلق حولى كقدر محبب وأنت محشور فى الركن ككاهن متبتـل لم يلحد بعد .. وكانت لى وحدها من دون كـل النظرات ، حتى وأنت تخجل بها فتخفيها وراء ستار زجاجى أدكن .. ينهشم فى رعدة مدمرة لبواطن تثور .. وساعتها أدركتُ قيدى .. التفٌ حول رعونتى فى صدق قاس .. وقيدنى الى لحظة دامية الفرح .. شهدها المكان المعشوشب والمنارة الجذلى والبسمة الوديعة على شفة وردة قطفتهـا لأنتقم ..

لكن أين هى ؟.. النظرة التى لم تكتمل بعد .. يغريها سر ما بألا تنضج ابدا .. وذلك ما يرعبنى فيها .. انها أبدا نظرة وجلة ، تتبعثر فى باحة العينين كحنان مزعزع لم يلتئم الى هذا الحين ..

ــ فهل .. هل أتلفها لك تيهى .. انحدارى المتواصل على حافة وجود ليس لى ؟..

ـ هل ؟.. هل تآكلتها النقمة الشمطاء وأنت تجوب بركام عواطفك السواحل الدامعة ؟..

ـ أم بددتها لفحة قيظ ، وأطفأها عطش لافح .. وأرق طويل ؟..

ـ أم طمسها سُعْرٌ منتقم ، فأصبحتَ تحملق فى المرئيات ، بمجرد بصر ، لتراها كما هى .. فتتعلق بما يمكن أن يكون لك .. تلمسه يدك فى يقين .. يقنعك بأنك تستأهل أى شىء .. غير السهاد الدامع واجترار مخلفات مصادفة .. من أعوام .

.. الانياب ومديتــك وقرارات سنين لا زالت تمزق مفاصلى .. تطرحها لك فى طبق لتأكلها برأسك المنحدر أيها الصابىء الارعن .. فأود .. أود لو أغرس أظافر النمرة فى حلقك .. أن أفجر منه الدم الشاب والكلمات .. فتهدر حول صمتى فى جلجلة ثرثارة لنشوة تمحق .. ولخصوبة لا انتهاء لموسمها ، لكن لا .. لن أريد .. لن أكون امرأة أخرى يملكها ظَفَرٌ مجنون وهى تتلمظ انتصار الدم فى تشريع انسان الغاب .. فقط ، اريد لو ابتسم .. كالعادة .. أن أطبعها على سحنتى فتكون أجرأ ادانة .. فلو ابتسم .. لو استطيع ..

لسمرتك فى قفص بسمتى .. ولسجنتك فى أدانة ما لها آخر .. ولتحررت .

لكن .. اترك رأسك يزداد انحدارا .. آترك هالات الانسان القديم تنقلب مناجل فى اعصابى .. اترك الكلمه المعطاء تنتحر فى لفائف الرياء التى تطمرها .. اتركها تسفه أكذوبة الصدق ، واتركنى .. فلعلى أبسم ..

تراتيل حزينة ..

صوتك

.. يالفائف حرير تلملم شعث الطفلة فى أعماقى .. تلفها فى نشوة مزهرة الحواشى .. توهمها بشواطىء سعادة منسية .. فترحل ، عبر جولة اطمئنان ما لها واقع ، تعربد نفسها بين ثنايا سحب عبير .. تعب منه فتنة صاعقة النشوة ، وتعيش .. على نبرات صوتك وهى تمنحنى قلعة عواطف واتزان وفكر .. فأدفن ضياعى فى هذا العطاء على البعد ، وأتركك .. قلعة سلام مبنية فوق أصلب أرض تنتظرنى .. تفتح فى وجهى بابها البشوش وتتلقف انهيارى بألف صدر وصدر يمنحنى دنيا حنان ..

وأين أنتَ ؟..

بخار كاس .. وصومى .. وجلسة لى منتشية ، تحملنى الى مرافىء عينين بللت ساحلهما بدمعة صدق فظيع .. وأعيش مع سطور ماض لم يجف بعد .. ينغل فى عمرى كمليون حشرة ، وأنت تغضب .. تنتقم .. تتعلق ،، تستجدى

وأنا .. ذلك المارد المموه الذى توزعته رغبات هوجاء .. وماتت النظرات التى كانت تسرقنى من شبابى ، وتعيش على استجداءات تلفى وخصاصتى ونحيبى السحيق .. تمتص كل ذلك بنهم ، وتولده خضرة ومساحيق جمال .. تتفيأ ظلال روعته لبعض لحظة .

لكن .. الى متى وأنا أفتقد كل مفاصلى ؟!.. الى متى والنظرات تمزقنى فى استجداء أخرس ناطق .. الى متى وأنا موزعة على حافة حيوات لا تخصنى .. الى متى وعويل مجنون يعصف بالاخرى فى داخلى .. تبكى شيئاً لم تكنه .. ووضعاً لم تتقصده .. وانسياباً تالفاً على هامش وجود ..

تسألنى ؟.. فما ذا كان لها ؟..

لم تلمس شفتها أبدا حافة كأس .. لم ترتع راحتها أبدا في متاهات كف .. لم تعانق خطوتها اطلاقاً سكرة جولة.. هى ، هى .. محشورة بين براثن تطلع أهوج .. يعيش الآخرون بسببه وهم حضور ليس لهم .. فمتى ؟.. متى يتكسر الاخطبوط .. متى تفنى حبال العنكبوت فى انتفاضة وحشية الانتقام .. متى تشفى بقع النظرات عن هيكل تتلاعب به ألف خيبة وخيبة ..

وتردنی :

ـ أفكرتِ ؟

ـ لا .. سوى أن الطفلة المجنونة العواطف .. الشوهاء الميول .. تفقد حضنها ..

ثم ، أتلوى فی ضباب كأس كالح الوجه ، وأتذكرها.. هی .. المرأة الجهمة المقاطع .. القاسية النبرات ، ستهب كاعصار من فناء يعصف بصدرك وحصنی .. ويرمينی بحكم واقع الى جزيرة سحيقة البعد مع وحشة ما لها أنيس ..

وهناك .. هناك فی أصفاع زمهرير الوحشة والحزن.. تنفلت كل الوجوه عنی .. حتی وجهك ، يخفيه بُعدٌ حقيقی وظل كالح لامرأة حافية النظرة .. ولا تبقی لديك سوى لوعة تذكر صامت لعذاب محبب ، كنتَ تطرزهُ بأرق ليل .. وتلف نهار .. وغيبوبة منتشية . لكن أنا ، ما ذا سيبقی لی ؟.. أفكرت ؟ كل الظنون المنعشة اختفت وأنا أسمع .. أری .. أحس .. أن حكما بالبعاد صدر ،، يزعزع الارض الصلدة .. والجدران الاسمنتية لصدر كان يمكن أن أغسل لوعته بدموع ندمی .

أنا .. وبعدك .. وفشلی ، نترنح ،، ونسقط فی لجة

عينين تعشفان الدموع .. ففيهما أتطهر من رجس ذنب لم يكن فى استطاعتى الا أن أقترفه.. حينما وشحت' صدوراً كثيرة بخناجر عذاب ، غفلت' عنها وأنا مشدودة الى وهج شهاب يسرقنى من الآخرين ونفسى .. انغرست° فيه نظرتى فى توله عجيب .. ثم انتبهت'.. فكانت الخناجر تعوى وهى ترتد فى مشاعرى .. تجرعنى عذابا 'ولا كالعذاب .. حتى عذابك، هذا الذى يدشن حلقة جهنمية اللدغ .. تحيط بى وتقيدنى الى يقظة خطيرة الرؤية ..

– حينما تشتد رعشة التفسخ فى كيانات الأشياء من حولى .. أنتِ الحقيقة السرمدية فى زمهرير وحدتى !..

يا لطلاوة الكلمة !.. يا لحربائيتها الاصيلة .. يالك؟! يا أنت ، يارجل .. يا ككل الرجال فحسب . كان سوط التطلع يدمى قفاى وأنا أتجاوز المسافات .. أعكس عذاباً بشرياً خالداً فى دنيا العجز والقيود .. أجسد مهزلة انسان يتلفع بأردية ملك .. أمضغ طعم نصر لم يسجله بشر .. حينذاك كنت تنادينى .. من ذلك المركب الذى يمخر عباب الدموع .. وكنت' مشدودة الى معالم بطولة خداعة المظهر .. أردت' فيها أن أتحرر وأحررك وأحرر هذا القطيع البشرى

المنفى فى عالم العجز والتواكل والخنوع .. ومع ذلك سمعتك، مع أن سمعى كان يشغله هدير معركة داخلية لانسانة تريد أن تكون .. ولكن ، ها أنت وبعد أن سقطت الاقنعة السحرية عن بصرى لبطولة لا يمكن أن تكون لانسان .. وبعد ان غارت مرساتى فى قطعة أرض متصلبة ، فاستكانت تيارات الاعماق، ومنحتنى هنيهة التملى فى عالم الآخرين .. تكون أنت غير أنت .. مجرد انسان يستوعب مظاهر الاشياء وتخفى عنه دقائقها فى تصرف عنيف القسوة .

.. لا أدغدغ عذابات عواطفك بترتيل الحزين .. أبداً ؛ فالجدران وأعمدة السقف وهول حياة تتناثر من حولى .. وأنا بلا شىء سوى ادراكى للزعزعة التى تفقد كل حياة من أن تتشكل بجد .. فكل مظهر أو مشروع أو مسيرة ليست سوى عمقها العابث .. تؤكد لنا ما يجب أن يعمّ كل ادراك : ان كل ما هناك واهم .. ثم .. أنفض هامتى فى حركة سرمدية الاعتزاز .. وأغالب حكمك وبسمة القدر .. وأسجل نصرى .. أننى امـرأة قطعتُ المسلك الفاجـع لوحدى .. باعتداد .. بتهور .. بطفولة متطرفة .. وبأخطاء كثيرة ، ثم ، وقفتُ على أشلاء أعوام أشهد النتيجة الهزيلة التى عدتُ بها .. هى لى ، بهزالها ، بتفاهتها .. نتيجتى وفشلى ..

مسعاى لوحدى .. تؤكد لى تفاعلى وانسحابى من الرف المزمن
الذى تمسرتْ عليه جدة أبى ، بل .. أن أكون الانسان
الحقيقى ، الذى يتلوى مع ثنيات الحياة .. يقبل اصابات
نصرها وهزائمها بتعال شبه ناضج . فلترحل .. فلتغبْ ..
فلتتهادى دعائم برجى فى هزة سقوط .. فأنا ، ببقاياى ،
المغسولة من أصباغ جيل مداهن ، سأعيش قضيتى ، فى
نسيان يطمس معالم فجيعة .. وفى انسياب قاهر مع تيار
زمن .. أرفضه .

فداك ياوطني ..

لحظة شوق طاغية ، تترنح بعذوبة مسكرة فى أرجاء مملكته ، فيتنغص .. ويهش عن نظرته الطيف الذى يتبختر بهوادة منفلتة ، يغريه ويشمت به ، فيترنح ويهذى :

انه ماض لم يمت ، دفنته فى قضية فداء ، ثم انتفض هو وكهولتى فى أستمرارية تفتت أعوامى وتعيدنى الى ربيعى الخامس والعشرين ، حيث ضممتها الى بيتى ، زوجة تمتلك من عواطفى ناصيتها .

وتهدج صوته بترانيم الذكرى .. فلم يستطع حارس الباب أن يلتقط الجواب منه ، وهو يخبره أن شخصا بالباب يسال عنه .

ودخل صديقه متلجلج الخطى بفرحة اللقاء ، ورده اليه بتحية جذلى :

ـ الحاج أحمد ؟! لم أرد أن أمر بالمدينة دون أن أغبط قلبى برؤياك .

فانتفض أحمد خلف مكتبه البسيط ، وترنح .. قبل أن يهرع ليتلقف صديقه ويحييه فى عناق صادق طويل .

كان ماضيا يعود اليه ، يحمل اليه نفحة من شذا ذلك الماضى المتخم برجات عاطفية سليمة ، ولم يترك يده :

ـ كيف أحوالك ياحاج ادريس ؟ سالت عنك أحـد المعارف مؤخرا .. كنت اشتاق لوقت نتمتع فيه برؤية بعض.. انه زمن !.. هذا الذى نعيشه الآن ، لقد شغلتنا ترهات واعمال جافة منهكة . أين أيامنا ، والمتع العذبة التى كنا نقتنصها رغم الماضى الحالك !؟..

وساند له الحاج ادريس غصته بأخرى مثلها دون أن يدرى :

ـ والسفر ؟! أتذكره ؟ كانت الباخرة عالما منفصلا عن مآسينا ، عشنا فيه اتصالا رائعا بقدسية السماء ، وصوفية الأيمان ، وصدق الاتجاه نحو قبر الرسول الاكرم .

فطأطأ احمد رأسه ونقر بأصبعه على حافة المكتب فى شبه

شرود ثم اجاب :

ـ كانت رحلة مشرقة النور على نفوسنا وحياتنا ، لكنها كانت تزف ، والى بالخصوص ، كأسا مترعة بشرابى النهائى .. ومع ذلك لم أفطن ، كنت أعب من كأسى بشراهة أنستنى التريث لأمعن النظر فى تلك العطاءات الكبيرة التى كانت تغمرنى .

وادرك الحاج ادريس مرمى صديقه ، فلم يرد أن يبرعمه فى كلمات تزيد من لوعة التذكر ، بل عرج به :

لقد كنت تأخذ وتعطى ، وان عطاءك لينير وجهك بجلال التقديس والتهيب .

فمس الحاج أحمد وجهه بحركة استطلاع هادفة ، ثم سحبها بشكل نافر ..

ولم تطل الجلسة ، فلقد انهتها المواعيد التى جاءت بالحاج ادريس الى المدينة ، وظل الحاج احمد قابعا مع صوته فى ألم صارخ :

ـ كل شيء ينفلت منى !.. حتى هذا الوجه الذى شهد فصلا من سعادتى لم يتركنى أتملى بانعكاسات ايامى على

سحنته ، لاعيش عذوبة الذكرى وانا أفكر فى الغبطات الكثيرة التى كانت توفرها لى « السعدية » ونحن نتوجه الى البقاع المقدسة لنؤدى الفريضة ونرجو الله فى رحاب مقام صفيه أن يهبنا عقبا .. كانت اهماماتها تثير كل انتباه ، وكان الجميع يغبطنى ويقول انها امرأة كاملة .. وكنت أصول بها ، كفارس يخترق بها وبشهامته كل مغارة ومخاطر .

وانتبه على صوت يسأله :

ـ سيارة الخبز أتت .. أنعده ؟.. فرفع رأسه بجفلة وحركة مجيبا ، ثم ابتسم بهزء :

– ألهذه النهاية سعيت ؟! قوضت أركان بيتى ورميت بأعوامى المتكاثرة الى وحدة قاهرة من أجل ان يكون تعويضى عن تضحياتى عمل سخيف يحشرنى فى مكتب فارغ ، أستقبل فيه الخبز وأوزعه على ابناء هذا الميتم !

وتحرك ممتعضا ، ليشرف على عد الخبز ، لكنه تسمر باهتاً وهو يحملق فى أركان «الملجأ الخيرى» بمقت :

ـ اله غبن .. غبننا ، نحن الرعيل الوطنى الذى قوض كل ما يخصه ليبنى منه هؤلاء لانفسهم قصورا مرجانية وعظمة منهوشة الجذور .. لا ، فالسجن ولا هذا الحيف .. وارتعد :

اصطدم جرحه برؤية ابن حارس الباب فتذكر ابنه .. ولم يملك أن يظل واقفا ، فدب مترنحا تحت وطأة أحزانه وظل يتمتم :

ـ عزة نفسها كانت تشحنني بقدرة على ان أنضم الى الثائرين .. أن أعزم على بذل مصيرى وروحى فداء لرسالة .. فداء لوطنى ، ولم أكتف بمشاركتى البسيطة فى الحقل الوطنى كما كنت أفعل منذ اول شبابى ، بل انغمرت فى أعمال أهم، ومن ثم فى سجن أطول ، وكان هذا يوقظ فى نفسها ونفسى تضاربا وتطاحنا بين عاطفتين سليمتين : حبى لوطنى ، وحبنا لبعض .. وظننتنى قد تركت لها الخلف لما أنجبنا «محمدا» ليعوضها ويملأ سكينة الوحدة من حولها بضجيج فلذة كبدها، وتحملت ، كانت تكبر نفسها عن الشكوى .. لكن مصيرى المهدد دائما ، كان يرميها فى حالة من ذعر مدمر .

وما كنت لأرحمها ، فرحمتها تقتضى أن أمسخ وجودى فى اهاب رجل يعى دوره ويتقاعد عنه .. ليقبع كخائن ، يرتشف جرعات السعادة فى بلاد تضج بعويل الالم والدموع.. لذا لم يكن الاختيار صعبا على ، لقد كنت مدعـوا لان أتم واجبى ، ففعلت ، حيث شاركت فى احدى جمعيات الفداء .

ظل امرى متسترا مدة من زمن ، كانت خلالها زوجتى راضية ومتشككة فى رضائها .. فهى راضية لاننى أقضى هاته المدة خارج السجن ، وغير راضية لانها تتشكك فى الدور الخفى ، الذى يربطنى بالبيت كل تلك المدة .

واخيرا وقعت ، لما انكشف أمر المنظمة الفدائية .. وآنذاك تكاثرت على جثتى كل السهام التى يمكن أن تنخر فى عزيمة الارادة وعنفوان المغالبة .. ففى هاته الفترة مات وحيدى ، فارتمت «السعدية» فى يأس جنونى .

وانقطع همسه .. خنقته الغصة الدمعية التى ترنحت فى حلقه وعينيه ، فتساءل مستدركا بتعجب وهو يرنو حواليه ببصر زائغ :

ـ لكن .. لمن احكى هذا ؟!.. لنفسى ؟! لقد سكن فيها وعشش وهى الآن تفيض بما امتلأت به :

ـ محمد .. هو الشخص الوحيد الذى كان يربط «السعدية» بحياتها ، بعد ان أدركت أن دورى هو قدرى .. فتعلقت فى شخصه بأمومتها وأنوثتها ومطالبها كزوجة ، ضيعها لها زوج استحوذت على عمره عتمة الزنزانات وتسلسل المحاكمات .. وبسبب ذلك لم تتحمل أن تفقده، فجنت وطالبتنى

بالطلاق .. فاما أن أكون لها او للسجن بصفة نهائية ..

كان ذلك قبل محاكمتي ، ولم أكن في حاجة لغير هذا لأنهار فانهرت .. فأن أموت معدوما ونظرات السعدية لا تجللني بنفس الافتخار والتباهي .. فذلك ما لم أكن أتحمله.. لكن من أجلها ، من اجل أن أرضى رغبة لها أخيرة .. من أجل ان أبقى لها حصة من عمرها الذى استهلكته .. من أجل أن أكون معها ، وبعيدا عنها فى لحظة التخبط، فعلت، ففى رحاب المحكمة التى كان قضاتها الاجانب يراودون صمتى ونكرانى باستغلال هذه القضية ، اعلنت :

ـ على مذبح فداك يا وطنى ، أقدم أعمدة بيتى قربانا صادقا يشهد بخلودك فى نفوس بنيك .. فمن اجلك اشهدوا: لقد طلقتها ، ولن أكون بعد لها .. اننى لكل ذكر وانثى فى هذا المغرب الحبيب ، ولن تستطيع اية عاطفة من عواطفى أن تجعلنى لغير ترابك .. وشجرك وسمائك ونسيمك، أدب عنه بدمى .. فمن أجلك طلقتها طلقتها طلقتها ..

ولا أزال اتذكر :

فلقد غرقت القاعة فى صمت وقور ، ما فتىء أن عكره صوت فرنسى كالح يحكم :

الاعدام .

رب اني وضعتها أنثى ..

الطوابق

العشرة تتمايـل وتنوح .. تتضبب نوافذها البلهاء وتسيل عند ما تصفعها رعشة اللقاء وانت فى المنحنى تدمر يدها فى حركـة نداء .. تهزها ، تخفضها ، تمنحها هدية بكماء لطلعتك ايها الصقيع اللافح .. وتهب هى عينيها للمدى .. فهو هناك : ابوها ، فى الشجرة ، على الطوابـق المكدسة ، وفى الطريق المسفوح على صدر الارض ، يرقبها ، وفمه يخشع بترتيله الذى لم يفتر منذ أن صدموه : أنثى ..

ـ أنثى !!

ومن البيت الذى أهاجه صياحها فر .. ورمى وجهه القانت ، ولحيته التعبدية فى الدرب الضيق الذى ألهمته وحشته آية : ربى انى وضعتها أنثى ..

* * *

هناك .. وانت تستحيل الى كتلة احساس ، تتصيد أثر حملتك التى دبرتها فى بدء مسيرتك ، قبل أن تشحنها

فى كفك ، لتهز بها راحتها كاحتجاج.. كدعاء لان تستجيب ، كان أبوها فى كل المنبسط يرتل : ربى انى وضعتها أنثى ا..

ربى أنى وضعتها أنثى .. وظلال العجز والذعر تلاحقها، ولعنة ممقوتة قد خصّبوا بها أنوثتها .. وأمها تتأهب دوما لان تكدس فى منافذ مستقبلها ، أشرطة جدتها :

ـ هكـذا كانت تقول .. هكذا كانت تفعل .. انها تستهجن كذا ..

وتحتج :

ـ ولكنى لست أمك !!

فتفزع الام من طابع التنصل فى لهجتها ، وتتنمر لأن تزرعها فى طيات تاريخ تُوفى .. ومن اجل الا تكون أم أمها ، ألا تكون تلك الانثى التى دمدم باسمها لسان يثقله شعور آثم .. بل ، من اجل أن تمحوَ عن كيانها أتربة عصور لم تدغدغها أصابع امرأة لتحولها الى شىء آخر غير الخطيئة .. فكرتَ أن تكون اخاها .. أن تستحيل الى ذلك (الأحمد) الذى لا يفجر فى قلب أبيه حالة خوف او رهبة او ذعر . ولكنه امتنع :

ـ البيت .. البيت ، البيع ، التزويق والحذلقة ..

ولوائح موروثة بحاجيات امرأة مرهونة المصير بشكليات طبقتها ..

وتندلع من الالسن معركة كلام تصيب شظاياها وجه الاب المجتمعى ، فيعلن :

ـ ما كان لامرأة مصير خارج تخطيط أبيها ..

فتدمدم هى :

ـ ولكن .. و .. ربى انى وضعتها أنثى .. يجب ان أتحرر .. أن أقهر فى قلبك يا أبى ذله .

الجيران .. الأهل .. الراغبون .. وعمرها .. قيود .. قيود .. وربى انى وضعتها .. ولمَ وضعتها ؟.. بل لمَ ألهمت خاطر الاب أن يرتل .. وان يظل ترتيله يتعالى حتى يبلغ وعيها ؟؟.

وتتخبط الانثى المراهقة فى شكليات قالوا عنها :

ـ انها ضرورة .

ضرورة !؟ وعبر خناقات تلك الضرورة ، فقدت صلتها بالضرورات والضروريين ، واستحالت الى مسخ يكادون يشكلون منه تمثالا بلا ايحاء .. فانتفضت :

ولمَ لا يتجاوز المرء الضرورات ؟.. بل ، لمَ لا يرتفع فوق تطلعات طبقته ؟؟.. ثم ركلت الأناقة والبهرجة والسيارة المسطحة الوجه ، وانكمشت فى انفراديتها ترد عليها غلالة امرأة لا يذلها ان تسمع : وليس الذكر كالانثى ..

.. ثم ، هزمت فى أبيها أذلاله ، وغسلت نظرته من شكها ، وأرغمته على أن يميز نقاوة صوتها ، وأن يحملق فى خطواتها وأبعاد مسيرتها .. ولكن ارتباطه بمعيار الحى والمدينة والاهل ، كان يستيقظ فيه فيحتج :

ـ متى كانت المرأة هكذا ؟!

فتبلغه صوتها بتلطف :

ـ بل على الاصح : منذ متى لم تكن هكذا ؟

فيصر :

ـ انها محتاجة .. هكذا كانت .. وعرفناها ،

ـ كاحتياج أمى اليك !! أليس كذلك ؟..

ـ ...

ـ لم يعد الاحتياج ضرورة .. ارتفع بارتفاع مسببه .

فيدافع :

ـ هذا خرق للتقاليد ..

ـ هذا فحسب ، اسكات لنبرة الذل وانت والآخرون تعتذرون : ربى انى وضعتها ..

ـ ومَن علمك هذا ؟

ـ السن والضرورة والظروف ..

ـ السن والظروف !!؟..

ـ أو أن تشأ .. الحياة .

ـ الحياة ؟ الحياة لم تكن هكذآ تسير .

ـ ومن وضع مخطط اتجاهها السرمدى ؟!.. نضيقه لنتقيد بضيقه ونتخذه عذرا لئلا نتحرر !!.. فأنت ممثل كل صنفك ، عليك أن تشيد فى نفسك بناء التفاؤل بالناس والحياة ، وألا تستعيد نفسك لأفكار يهزها العصر وبراءتى .

فلامَس شعيرات من وجهه بأصابع تكاد ترتجف وهو يقول :

ـ يا ندامتى .. كان يجب ان أريح نفسى منك قبل أن تفهمى .

وقال له أخوها .. احمد الحقيقى .. وهو يسيل عليه بلوعة ، لوائح الامتيازات التى كانت تطفو حولها :

ـ ولكنها يا أبى ، كالعادة ، لا تملك الا ان ترفض ، لكأنها ولدت خارج حدود زمنها .. ذلك ذنبك .. فرددت هى مع نفسها :

ـ ما أفظع أن أكون أنثى بين قوم لم تتجدد قيَمهم بعد .. لكأننى أريد أن أختصر كل النساء فى واحدة ، لأحطم قيدا جررناه من دهور .. ومع ذلك ، فما أعذب ان أكون أنثى بقضية .. ثم فكرت بحزن :

ـ هم لا يحسون أن تحت أطباق صمتى عراكاً آخر : بين ما استتر فى من أهواء الارض وتطلعات السماء .. بين ذلك الماضى البشرى المغلف بأسطورة جرم أمرأة ، وبين هذا التطلع الى الانسان الأكمل .. الانسان الانسان .. المرأة الانسان .

وأتتها نورة الوجه الوقور وقد بلغت فى قوتها عتو عاصفة :

ـ لست مسؤولا .. الأخريات .. بناتى ، لسن مثلها ،، فقط ، لو لم تكن رعناء ، لتقبلت حظوظها .. أنها نموذج غير النماذج الاخرى .. تتشبث بالأدون ، وتمقت المباهج التى كانت للمرأة من زمان .

وتحنو على اللفائف البيضاء فى وجهه لئلا تصيح فيه :

ــ مسؤول .. أذللت وجهى الانسانى ومرّغته فى وحل عاداتك .. وكرهت ، كأجدادك خلال القرون الأسنة ، أن تتحمل وجودى .. وأردت أن تحشرنى كمومياء فى صلف رجولة ، يبعثرنى ضعف وتسلسل خطيئة .. ثم تريد ان تطمس حتى بصرى ، لئلا أرى بعينيك ، سوى التطلعات الرخيصة التى كانت لجدة جدتى .. لكن اعرف فى ، ذلك الـ «بروميته»، أول ثائر ضد القدر .. لِيتَرَّ ، كيف اننى تعلمت أن أرفض ، وان أواجه قدركم بما اخترته أن يكون قَدرى..

* * *

وهمهمتْ :

.. وأنتَ لا زالت الرعشة منـــك .. تحــاول أن تبعثر ركــام الصمود فى اليافى وفى شرايين الطوابـق العشرة من حولى.. فأود لو مزقتْ لمستُك سر عوالمى .. لو أخرست فى آدان ذاتى ترنيمة أبى التى تُسمرنى فى وضع أبله على هامش حياتى .. لو اخترقتْ صمتَ أهوال معركة تعربد فى أعماقى .. لو انطلق بريق النبل فى عينيك ليفكنى من عقدى ومأساة الصوت الصادح فى أعماقى .. لو مزقتْ تلك الحركة أقنعة برودى .. فلو ، لحررتَنى من قيود بركة

التجأ اليها أبى وهو يتقبل حالاتى .. كره أن يعترف ببشائر نصرى ، ففضل أن يباركنى وان يحيلنى الى خضوع آخر :

ـ قبّلى يد هذا.. أدع لى معها، فهى ليست كالاخريات.. وأنت انسان تقى .

ومن أجل أن ترسم بهجة بدائية على الوجه الأشيب ، كانت تنهزم ، تنحشر فى لون آخر للضعف وتتذلل .. فهو على الاقل ، ذل حر ، أختارته هى ، لان تسم الملامح المجهدة برضاء ما .

ويتمم هو المشهد ، فيمسح رأسها بحنان ينعش الجذور المتصلبة فى الانثى المقبورة بين أثقال ماضٍ فتاكِ الحكم .. ولكنها ترتجف ، وهى تتخيل الشفاه الحبيبة تتمتم .. ربى انى وضعتها .. وانى أعيذها بك و .. ، يجب أن تصمت، أن تقتل فى نفسىَ خوفك ، وأن تنتصب فى وجهى كذلكم الالاه الابدى ، الذى اختار واجباته : ان يصنع أنثى .. ألا يخافها .. أن يملك قدرة أن يبارك بذرة الطهر فيها ، المقبورة بين تلافيف قذارة أجيال .. ثم أن يواجه شطحاتها وحبّك الحياة بين طيات حشاياها .. أو ، وتهديم هاته الحياة .. لكن ، هل حتى أنت أبى ؟! هل تريد فى أنثاه؟!..

فتمسك بين اصبعيك معياره وتُقيِّم :

ـ لا أريدها هكذا .. أُريد الاخرى التى لا تهزم فى بطولات لم أصنعها أنا ، وجدتُهم يقولون انها للرجل بالعادة.. وهى لا تقول ذلك .. بخلاف تلك ، فستقول ما أقول ، ولا تغرس نظرتها فى شخصيتى لتستل منىَ الانسان الآخر الذى لا زلت أبنيه.. بل ستقبع فى ظلى ، قانعة بمن أنا : الرجل بالولادة .

ذبذبات رجة ..

ملايين السنين تنهار على هامتها ، وتستيقظ دنيا الابالسة فى أطرافها ، وتعصف رياح الابادة بخصلات شعرها .. فتلتصق بخطوتها .. تمتص غبار الاعصر من تحت قدميها ، وتتشبث بأن تلتقط نظراتها أى شىء .. وجه متعبد تـُخفى سحنتـُه الملتحية الف استفهام متشكك .. اطار انسان امتص كَـلَـل الاجهاد منه كل ابتسام .. وجهَ طفـل برىء مهيـأ لان تلعب الحياة على نصاعته عربدتها الجهنمية .. أو أى شىء .: سيلا بشريا .: نمنمة ما .. صفاء هامسا من صوت خاشع يتهجد .

. . .

وفى داخل المبنى .. تنثال صفائح الأبخرة المحملة بأساطير انسانية من الحدقتين المحمرتين فى جوف مجمار .. فتفقد بقية المشهد : النصاعة البراقة على جدران تقبر ضحية..ا

انها انسان، عبد نفسه، فسجد له الآخرون ، يا للمهزلة !..
وتخرج : لن أركع .. فهو لم يكتشف عجزه .. لم يتجرعه
عبر الدقائق والثوانى البطيئة .. لم يعش بطولته وهو ينوء
بكشفه .. لم يتم وقفته ليكون فى مستوى السر ، ليَعْبُر
متن وجوده فيصل الى قدرته : قدرة الانسان وهو يُثبت
صولة كل البشر فيه .. فلقد غفا وهو يحيا يمتص انتصارات
بطل ليس هو . وهل أنا تلكم البطلة ؟!.. وتتطلع برعب
مفاجىء ، فتتكسر أرجاء المدينة المجهدة على رأسها .. وتحسها
بلا مدينة .. بلا جدران كانت تخنق فى الانسان انطلاقته ..
بلا سقوف محملة بآلاف النظرات الصاعدة الى أعلى برجاء
أبله مزمن .. بلا أزقة مكتظة بوجوه طافحة بالملل والسؤال
القلق : وأين المفر ؟..

ويشتد الاعصار .. يتجمع حول قدميها فى رقصة
همجية الحركة .. ونغم متوحش ينوح : واين البطل ؟..

وتنتبه.. تتحطم عبر اهتزازات جسدها المهدِّد أمجادُ
أجيال سكرت بوَهْم بطولة لتبقى هى : الانسان الحائر فى
كل مكان .. يواجه نفس البحث : ومَن أنا ؟ بلا طلاء بطولة
من أنا ؟؟..

أنا ؟!..

ــ أنا دمية عاطلة فى كف مالكٍ جبار يزحلقها بين أصابعه كذَرّة رمل ضائعة ليلهو .. يُرسل عليها زوابعه وغضبات رياحه لمّا تريـد أن تنفلت .. ان تكـون هى .. الانسان بلا ملهاة .

ولكن الضحكة الساخرة ترتجُ فى صمت غضبتها : انه هو .. نفسه .. مَن تقف المعرفة عند متاهات غموضه .، يزلزل بقهقهته أعمدة بحث بلا رجاء .. بلا كلمة يمكن أن تزيح عن طلاسمه قليلا من سرية .. ثم .. ثم تضطرب دعائم مدينة المثل فى قلبها لتتهشم على صخرية عبثية كل فضيلة .. كل رذيلة ، وكل وجود .. وتظل بلا عالم .. بلا أشياء .. بلا وهم قيم مخدرة .. بلا نبرات تخترق مجاهل الصمت المطبق ليتهشم ذلك الصمت فى عويل مجنون يتساءل :

ــ فمن أجل أية حقيقة تعذبت' وأتعذب ؟.. كل حقيقة تنفلت منى لئلا تنصهر كل العوالم والخلائق والمفاهيم سوى فى حقيقة واحدة : ألمى .. ذلك الذى التزمته بصدق لا واعٍ منذ صرخة الاحتجاج الاولى التى مرّغتْ' بها وجهى فى أول

ارتطام له بالارض .. لكن الآن ، الى أين ؟؟ لقد فقدتُ كل ارتباط بالحياة .. فلا وفاق بيننا .. ولا وجه فيها يُغْرى ،، ولا شىء سوى أننى حشرجــة احتجاج مخنوقــة فى حلق البشرية المحنطة داخل وجود ليس لها .

* * *

وتتيه : ثم تزفر .. فتتبرعم من جديد .. الهياكــل والاسوار والاتربة .. ومقبرة الفكر . وتتخطى عتبتها وتهمس: كل الاشياء تسترد أحجامها وأشكالها الا أنا.. فلونى تَحلـَّل فى مخاض قضية .. وهذا اعتراف ، تسليم فاضح بعجز البشر عن أن يصلوا .. أن يمزقوا عن السر أغلفتــه .. ليكتشفوا فيه أنفسهم .. عوالمهم .. وجدية الدور الذى اختير لكل منهم .

وتـُطلُ نظرات عشواء من رفوف مكتظة بأوراق مهترئة.. فتنتبه : اننى الآن هنا .. فى المكتبة الضيقة .. أعيش فى هاته النظرات زمنا ماضيا ما يفتأ يتجدد وحده .. أما البلهاء.. هؤلاء الذين دَوَّخَهم مجد البطولة فزيّفَهم ولوّن رغائبهم وهواتف ذاتهم بلون زاهد .. فهم .. بلا مبالاة ،، عند قدمى ،، يتنسـّمون عبير حياة لو تكون لهم ، لكشفوا مهزلة الدور :

انهم عجز .. عجز تَفاعَلَ مع نفسه فى مجاهل الليل ، ورونق النهــار ، ومتعة الصبا ، لتعكس السحنة الذابلة لهؤلاء الاطفال الكبار ، النكسة الابدية لجنسهم فى معركه الخوض وراء أبعاد سر يُغْرى

وعلى وجهها تمطت بزُهْو ، غصة كبيرة ، فعانقت بها كل تلك النظرات الانسانية التى خُدعت فى سلوتها ، وهمهمت بهول فجيعة :

ـ أهذه هى النهاية ؟!.. أن نطْحَن عمرنا على شفة ما تفتأ تتساءل .. لنُطل من بعد .. على عمر مستقبل ليس لنا ، بعيون أذبلها الفشل ؟!..

ومع السؤال تلوّت بوجع لترمى على الزحام البشرى المصلوب على هياكل كلمات منبوذة على جانبى المقعد ، نظرةَ التياع حادبة ؛ انهم أنا .. بوهمى .. بحلمى .. بالتهور البدائى الذى أردتُ أن أترجم به أيامى .. روعة شبابى .. وخصوبة أشيائى الى « كلمة » أفنى فى سرمديتها أزهار حياة عكترها سؤال قلق لا زال يلحُ : فما الفائدة ؟!!..

ويظل السؤال يتنقّل .. يقتلع بهزئـه الساخر عن

الاشياء والموجودات روعتهـا : الى نفسى .. الآخرين .. وجه الحياة المنتظر .. وهاته العقول والعبقريات . ما الفائـدة؟.. ياالاكتمال الافلاس !!..

ومع وطأته زحلقت رأساً مثقلا ، بنتيجة تجربة ، على حافـة المقعد .. ولمستْ باهتمـام أنثوى جانب كتاب .. احتضنته ، ودفنت فشله فى شلال حنان يتفجر لكل عذاب بشرى .. وتركت أناملها تسرح على صفحاته لتمسح عن أوراقه لوعة الخصاصة .. ومهانة النبذ .. وخدعة اللعبة ، ثم غمرتها سحابة نشوة غيّبتها عن كل شىء سوى ، أنها تعطى .. تعوض .. تمسح عن الاجفان التى أذبلها اجهاد غير مجدٍ .. دمعة كبرياء انسان لم يكن يريد أن ينخدع .

وتنفست القاعة .. انثالتْ على كآبتها بسمة شفقية من العيون المزهرة بحنان حى . ثم نَدَّ عنها استفهام مليئه :

ـ وأنتِ ؟؟.. أنتِ !!..

فارتطمت به .. وبالعيون المصرةُ على قوله .. والرعشة المنسابة من الصفحات الى الحضن الثلجى .. ثم انتفضت كمن مسه تيار مرعب من لهفة مخبولة :

ـ عرفت الآن من أنا .. أنا حمى بركانية مقبورة تحت أطباف من جليد التطلع والطموح .. عشت رهبانية متبلدة .. ونومت هواتفى بنغم الوصول .. وعشت على أمل أن أبدد هذا القهر البشرى .. لكـن يجب الآن ، أن أعيش قدرتى العاجزة .. أن أكون (بطلة) لمّا أتحملها وأسير .. أقطع بها الازمنة .. والامكنة .. وغربتى ..

المسابق الاول ! !

الى ذلك المنبوذ الذى افترش الارض وراء اظهرنا ، فشغلنى عن المسابقة ، أهدى أول قصة ، هى منه واليه :

هناك ، فى الحافة المطلة على الطريق الموازية لشاطىء المستحمين ، اجتمع الناس الذين أتوا جماعـات ووحداناً ، ليشاهدواهاته المسابقة (الاوروبية) التى اختارت بلادهم أيضا ، لتقطع فيهـا مسافـة ضمن المسافـة المقررة لسباقهم ...

وفى انتظار بداية المسابقة ... كان الناس يستمتعون بنسيم الليل الشاطئى المعتدل .. ويقطعون الفترة الفاصلة بينهم وبين بدء السباق بالحديث عن السباقين وشجاعتهم ، وعن الخط الذى سيتبعونه الليلة فى سباقهم ، الى غير ذلك من هذه الاحاديث التى تدخل ضمن الدافع الذى جعلهـم يقفون منتظرين ..

وأقبل هو يسعى من درب ضيق يقضى بدوره الى مكان اجتماع المتفرجين .. ولم يكن يدرى عند بدئه لهذا الدرب ، أنه سوف يتجه الى هذا المكان الذى يقصده الناس .. بل لم يكن يعرف أين يريد أن يذهب ، وانما كان يكل ذلك الى قدميه النشيطتين اليوم ، تذهبان به أنى شاءتا ، فاذا تعبتا وقفتا عن السير ، فيتوقف هو بدوره . ولا عليه أين كان هذا التوقف .. وكان بين الفينة والاخرى يرفع يديه المعروقتين نحو جيبه ، يتحسس بهما تلك الدريهمات التى أدفأته اليوم ، فبـدأ يسير دون أى قصد ، كأنه يريد أن يقصد بها ما لم يقصده من قبل .. وان يلتقى بفضلها من لم يلتق بهم سابقا .. وأن يجد بفضلها ما لم يجده فى كل ماضيه !..

كانت صفحة الحياة عنده الليلة تختلف عن صفحات الليالى السابقة ، ولم يكن فى قراره يُرجع ذلك الا لهذه الدريهمات التى امتلكها فحافظ عليها مدة أطول ، دون أن ينفقها بسرعة ، خوفاً من أن يشعر بالفاقة والاحتياج من جديد.

ثم انه كان يريد بفضلها أن يرتفع بمستواه عن واقعه ، لانه طالما فكر سابقاً فى أن ليس ما يميز بينه وبين أفراد الطبقة الاخرى سوى الدراهم .. فلو أنه كان يمتلكها لقفز الى مستواهم ولأصبح نداً لهم ولأراح نفسه من هذا الشعور

الذى يحزه وهو أنه دونهم مركزاً وقيمة ..

واليوم ، فلقد استطـاع أن يمتلك دريهمات !.. ثم استطـاع أن يحافظ عليها عـلى عكس ما ألفه من صرفها بسرعة!.. اذن فلقد بدأت المسافة التى تبعده عن غيره تقصر أمامه شيئاً فشيئاً .

هكذا كان يسير فى دربه ، وآذا به يرى أضواء تسطع وأناسا يتحركون فى جانب الشارع الكبير .. فأسرع الخطو نحو هذا الجانب ، وعند ما اقترب من الجمع ، أحس بأن الفرصة قد حانت .. الفرصة التى طالما تمناها ، وهى أن يقف والآخرين على مستوى واحد ، دون أن يكون هناك تمييز.

فزاد فى خطوه اسراعاً حتى دنا منهم وهو يظن أنه سيندمج فيهم ، فيشعر بأنه منهم وبأنه غير منبوذ كما كان من قبل ، لانه يملك بعض ما يملكون !!

ووصل اليهم .. فحملق فيهم كثيرا ، كأنه يريد أن يطبعهم كلهم فى داخله ليحس انهم هو وأنه هم .. ثم بدأ يسير خلف الجدار البشرى الذى يدير وجهه نحو طريق المسابقة ، يسير خلفهم وهو يتملى برؤيتهم ، ويصيخ بسمعه الى أحاديثهم التى تدور حول هذه الجماعة وتلك ..

وأحس بغتة برغبة فى أن يشاركهم الحديث ، فاقترب من بعضهم وهو يتفرس فيهم ليرى كيف يستقبلون واحداً مثله في جماعتهم.. وأراد أن يبدأهم بالحديث، ولكن ماذا سيقول لهم ؟ لقد ارتج عليه ، فلم يعرف ما ذا ينبغى له أن يقوله لكى يقبلوا عليه ولا يصدوا عنه .. ودون أن يدرى وجد فمه ينفتح عن : **لماذا أنتم واقفون ؟** بهذا السؤال الفظ كلم الجماعة التى أمامه .. فلم ينل منها الا نظرات نكراء لا تعبر الا عن ترفع عن حديث مع من هم مثل هذا المخلوق !

لم يستطع أن يتحمل هذه النظرات منهم ، فانسحب بسرعة وهو يعود باللائمة على نفسه ، لانه لم يكلمهم بأسلوب فيه بعض اللياقة .. لكن ما تراه يعرف من أساليب مهذبة تليق بمحادثة من هم أرفع منه اجتماعيا ؟ لا شيء ..

وابتعد عن الجموع وهو يجهد نفسه فى البحث عن كلام يفضل ما سبق ، يخاطب به جماعة أخرى ليظفر بجوابها ثم بالاندماج فيها .. وبعد فترة تقدم نحو جماعة ، غير الاولى ، وخاطبها بسرعة ، كأنه يخاف على جملته أن تضيع منه : **ما ذا أنتم تنتظرون ؟**

وأنكرته هذه الجماعة وأنكرت سؤاله الذى ظن أنه قد

هذبه عند ما اجهد فكره فيه .. لذا انسحب من مكانه وهو يحنق على هؤلاء الذين لا يظفر منهم سوى بنظرات نكراء تبعده عنهم وترده الى حقيقة واقعه الذى يريد هذه الليلة ان يغيره . وما ابتعد عنهم الا ليعود الى المرور وراءهم ليستمع فى هذه المرة سبب اجتماعهم ، لانه عند ما يعرفه سيكون بامكانه آنذاك ان يشاركهم الحديث فى موضوع يعرف شيئاً عنه .

وساعده تأخير المسابقة الى منتصف الليل على الاكثار من المرور واستراق السمع حتى استطاع أن يعرف ان الناس ينتظرون مرور مسابقين أجانب ، يركبون سيارات يتسابقون بها للفوز بالأولية والأسبقية ..

والآن، وبما أنه قد عرف سبب الاجتماع ، اذن بامكانه أن يشارك هذه الجماعات فى الحديث ، وسوف لا تنكره مثلما أنكرته من قبل ، بل سوف تتيح له معرفته لسبب انتظارهم سبيل المشاركة .. وتقدم هذه المرة من جماعة ما وهو أكثر شجاعة، وخاطبها بثقة : **أنتم تنتظرون المسابقة . لقد عرفت ذلك أنا أيضا !!** فاستاءت الجماعة من هـذه البلاهـة التى يخاطبهم بها هذا المعتوه ، ثم انقلب استياؤهم الى ضحكات استهزاء جعلته يبتعد عنهم ويسرع فى الابتعاد .. وما توقف عن الهروب الا عند ما وجد مسافة تفصل بينه وبينهم ..

عندئذ توقف فى مكانه وهو كالمرجل يغلى على هذه المخلوقات التى ترمى به بعيدا كلما حاول الاقتراب منها .. وتنكره كلما أراد أن يُعرفَها بنفسه، وتنبذه دون ما جناية أو جريرة ..

ان يكن جيبه فارغا فلأن جيوبهم سرقت نصيب جيبه!.. وان تكن ملابسه رثة فلأن اناقتهم سلبته ملبسه!.. وان يكن جسمه ضامرا فلأن افواههم تخطف لقمته !.. وان يكن فكره مفتقرا الى معلومات ، فلأنهم سرقوا فرص تعليمه هو وامثاله من النكراء لديهم !..

هكذا كان يفكر فى وقفته .. وما عهد من نفسه تفكيرا مثل هذا ، ولكن سخطه الشديد على تلك الجماعات جعله يدرك كل ما سلبوه ويسلبونه منه . وبقى فى وقفته ينظر اليهم بتحد وهو يصمم على أن يخلق لنفسه وجودا ، لكن كيف ؟ ليس يدرى .. وبينما هو يتيه فى عدم درايته لوسيلة اثبات وجوده ، بل وبينما كاد ييأس من الوصول الى هذه الوسيلة ، أبصر فى جانب الشارع الآخر ، ذلك المستودع للمسكرات، فهرع اليه، كأنه قد وجد فيه الوسيلة والسبب.. وبقربه أكب فى جوفه القارورة التى دفع فيها أكثر ما كان فى جيبه مما حسب أنه سيرتفع بواسطته درجات الى مستوى الآخرين !..

وفى سكره حقق لنفسه وجودا . هذا الوجود الذى يعترضه دوماً هؤلاء الذين لا يرحمون .. واتجه من جديد بخطوة المضطرب صوب الجماعات ، وبعد خطوات متعثرات تنبه ما كان قد استقر فى لاشعوره مما سمعه من بعض الناس فى حديثهم عند ما كان يمرُّ وراءهم : وهو تأسفهم على عدم استطاعة بلادهم المشاركة فى مثل هذه المسابقات لانها لا تملك سباقين مثل سباقى الليلة .. حينئذ ظن نفسه أنه

هو ذلك السباق الذى تفقده أمته ، والذى سيشارك باسمها فى المسابقة .. وهكذا بدأ يأتى بحركات تشبه حركات السيارة ، ويسرع اسراعاً هو فى الحقيقة بطىء ، لكنه فى ظنه تسابقٌ مع السيارات الاخرى .. وما كاد يصل قريبا منهم وهو ياتى بتلك الحركات المضحكة مع ذلك السير المرتبك حتى ارتفع تصفيق الجمهور عند ما أشار الوزير ـ الرئيس الشرفى فى المسابقة ـ للسيارة الاولى بالانطلاق ، عندئذ كف مسابقنا عن السير ، واستقر بالارض على وضع خاص وهو يلوح بيد مرخاة فى غير ما اتجاه ويقول :

ـ ها أنتم يامن أنكرتمونى ، تصفقون لى عند ما اصبحت الفائز الاول فى المسابقة .. وها أنتم تنقلبون بغتة من منكرين الى مصفقين هاتفين، وتلك حالتكم، وهى حالة من لا استقرار له على حال ، لكن طوبى للذين ارغموكم على التصفيق لهم بعد ما أنكرتموهم !

العيون المبرقعة ..

كنغم ، مبحوح الرنة كانت تنساب على حافة السكينة .. مقبورة النفس .. جاحظة النظرة ، وضائعة الخطى .. وبحثت عن صداها ، عن رجع العويل المزغرد فى متاهات المدى لتتلقفه .. فتحس أنها هى . من تملك أن تعربدها حيرة فى اطار غير مخضب الحواشى بشىء اسمه الملل .. ولكنها لم تصادفه .. فالقفر ينتشى برؤية الشعر المشعث فى عملية احتجاج بدائية .. ثم يمتص الدمع المسفوح فى حرارة موكب جنائزى ، ويداعب القامة المنتصبة فى صلف انبراطورى .. وتنوح :

— كل هذا لاننى لم أملك بعد أن اكون أنا .. أن أطرز حواشى أيامى كالأخريات ، بشهب مطفأة السنى ولأقبله .. أعيش معه يوما لا ينتهى ، أحتسى من كأسه نفس الجرعة ، وأتغذى بخيبة لا تفتأ تتجدد .. وأبدد سمعى فى زحام كلمات صوت لا يتقن غير أن يطلب .. لا ، لا ..! ان اللحظة

مشحونة بكل الزمن. هذا الذى يُكشر فى نفورى وتوحش غضبتى .. لانه لم يملك أن يحشرنى مع الكتلة .. مع مَن زعزع فى تصرفاتهم صلابة النقمة على رتابة الدور وتكراره.. فهو يدغْدغها لهم بوَهْم مباهج ثنائية .. تُشعِل حمّى الحياة .. وتعطى باستمرار ، آدم الازلى ..

وصمتتْ .. فضجت العوالم من حواليها .. وتضاربت المناكب المسكرة للبشر الساهى .. وتطاحن صدى ألسنتهم فى كثرته ليعلو وينخفض فى لعبة شيطانية لا تسلى ، ثم يتفرقع .. فتسقط منه شظية .. تغُوص فى عمق الاعماق ، ليتفجر منه حزن حقيقى يعانق الصدى الذى يردد: لقد ذهب..

ذهب ؟.. ويرتفع الستار عن نكوص مفاجىء .. ان الزمن قد اقتلع الشط الذى كانت تدفن فى صلابته تيهها، فاندفع اليم مزمجرا وابتلع جزيرة الحنان التى كانت تحتضن عنفها .. وقوضتْ يد انسان .. الحصْن الذى كان يمدد ظلاله ليلاحق هيكلها الضال ويرميه فى عذوبة استراحة .

ولِمَ ؟

ألأنه الانسان الذى قال مازحا :

ـ اليوم .. لقد اكتشفت أنك ماكرة مكراً متعالياً ..

فردت عليه بقهقهة لا تبالى وقد ارتضت ان يتخلى ولو مرة عن تسبيحه :

ـ لقد تأخرتَ .. كان يجب أن تكتشف وجهى الغولى منذ زمن . ثم أتمت محتجة فى صمت :

ـ هذا الادراك السلحفى ينغص بهجة رضائى ، ويرمينى فى بُعدٍ أبعد .. أكتشف فيه مشرحة عينين .: غير عينيه .:. تعريانى ، فى كشف حقيقى لسقطاتى وفضائلى .. وتغريانى بأن أضيع فى مداها ، أعب منهما شرارات الفهم .. وفتنة التعرية .. واستدركتْ : هو .. لم يكن ، قطْ ، ليتخطى عتبة تأنقه ليصبح فارساً .. فهو أبدا ، الزخرفة الغير القابلة للتلاشى فى الخوذة الصلبة من أجل أن يسبر غور عوالمى .. أن يكتشف فيها ما يرعبه : صخب الحياة ، وصراع الانسان .. وغليان العواطف وترانيمها .. كان بشراً ممسوكاً الى نقطة ، بشىء اسمه : سطحية النظرة .. تعلقت تلك النظرة بطلاوتى واكتفت .

.. واخترق المكانَ طيفُ بسمة .. فلم تزد ، لملمت سيل كلماتها فى صوتها وخبأته .. ثم حملقت فى وهج نظرة باسمة كانت تداعب كآبة المكان .. فظلت تلاحقها .. على

الجدران .. فى السقف !. وقريباً قريباً حتى ملأت كل حيّز الفراغ .. فانشدهتْ :

ـ انها نظرته .. تلكم المتخمة بصورتى .. تذكرنى دوما باشيائى .. فتشحننى بطاقة مؤثقة ادخرها للتجربة النهائية لمّا انهزم ..

وببلاهة طفلة مفغورة الفم، أدارت رأسها فى كل اتجاه.. تريد أن تقتنص نفس النظرة .. التى طالما تسترتْ دونها بكتل من الغموض والتجهيل لتتحرك عاديتها وتتحول الى أخرى، مجدولةٍ ببِرُنْو كاشف يخرق كل قناع .. لكنها رحلت وأسلمت الاشياء والمكان (وهنداً) الى سؤال فاجع :

ـ أتلاشى الامل الصغير ؟.. ذلك الذى يعكس أهمية ممتلكاتى فى نظرتى .. أتكسرت النظرة التى تعكس قيمتى ، ففقدت حتى ذلك الرضاء الساذج الذى يُبقى لى التباهى بسحر الاناء ولو تهشم ؟..

واكتسحتها سحابات مدقعة ، خيمت حتى على تذكرها لمباهجها ، فاحتجت :

ـ كيف ؟!.. ألم يكن سوطاً تُدمي واقعيته فى هولى.. فأضيع، أذرف عبرات الاحتجاج التى شهدتْها الاعوام والتطلعات

والانحدار .. وأنجرف ، باكتساح فوضوى .. الى عالم غير عالمه ، أحطم له الرسالة التقليدية والدور المحنط فى الشكليات المتهافتة ؟!.. لكن ، مع ذلك كان مرآتى .. كان الاعجاب الذى يقيمنى ويرمينى فى دنيا مزهرة من السكينة والسلام .. فتكسرت الآن مرآتى ، وعميت نظرتى عن التقاط أية حقيقة فى .. ثم استرحْت ! هكذا تكون قدرتى الواهمة!.. تقوض ولا تبنى .. ثم تحتضن الركام المفلس فى حنان سلبى لا يدرى ما يريد ..

وتراءت لها صورة مؤطرة بزمن ماض : هو يحمل دوره بين يديه ويخطو .. تراه كهيكل من شمع مزخرف .. ارتطمت قاعدته برغبة أسنةٍ ولم تتعدّها .. وهى ، بلا قاعدة وبلا ركود .. ومن اجل ذلك كرهتْ ادراكاته .. وانطلقت فى عنف دام تُشهد عمرها وأحداثه على أنه ليس لها .. هو لدوره وكفى .. ثم اخذت تتدحرج من اللوحة ، فلعله يرد لها اكتمالها لمّا يستطيع أن يكون غير من هو .. فيعزم على خوض متاهات المعرفة والمجهول من أجل تحقيق بطولته .. تلك التى ستقرر رجولته عندها .. هى ، السائحة دوما على حافلة الاسرار .. والمسافات .. والكون ..

وأخذتها رحلة فجائية .. كانت مدعوة لأن تزرع قضيتها على الارصفة .. وعلى تكشيرة الوجوه الغير المخضبة بنتائج تجربة .. وعلى متانة قامات لم تلِن أعطافُها بحس صادق ، ثم .. على قدسيُة معبد العدالة . وتخطت هيبته القاتمة .. فضاع هيكلها فى السحنات الوقورة النابعة من الاعمدة السوداء .. وانشلغت بالابتئاس المتفجر من الوجوه المظلومة .. وسايرت الكلمات فى جولاتها لاكتشاف الوجه العادل فى كل القضايا .. لكنها دائما تجانبه .. فتضيع حقوق وفرص وبطون ومواهب ، وتأكدت : ان الانسان لا يجد قط كل ما يخصه .. فهو يضيع له حتى ولو تقصده داخل جلال هذا المعبد .. وتنفست :

ـ ومن ضيعه لى أنا ؟.. من مهابة هذا المبنى يجب أن ينكشف سرى وأسرار كل هاته المعاناة مع حياة لا أدرى كيف أتصرف بها وفيها .. فأنا لونٌ غير مندمج .. وكم يتحمل حينما يريد أن يتشكل .. فأمامه عوائق أصيلة وواهمة تنتصب فى محاولته لتُبقى له العالم والمشاريع ذات ألوان حائلة .. غير مضبوطة .. وبلا وضوح . وانتبهت .. فرأته : ذا الوقار المسود .. يلاحقها بنفس النظرة .. نظرة الآخر .. يساندها تلعثم واضح وحركات غير قارة وراء الحاجز

الخشبى .. فارتعدت وأدركت :

ـ هذا ايضا مما يضيعنى .. فما الفائدة ؟.. ان كل نظرة هى مثل هاته .. لا تكشف أبدا وجه البطل .. فهى تُقيم حدود الشخص وتنفى أن له أبعادا .. فهو .. حتى هو .. فى مستوى نظرته .. والى الآن : كل رجل .

وخرجت .

الوجه المنعكس ..

السكون .. من حولها يتمزق : هى التى كانت تمزقه ، تضرب بحذائها على البلاط بترتيب وتصميم ، فتحس بتقطعات فى سلسلة الافكار المهاجمة .. وكان ذلك يحقق لها نصراً على الأفكار العنيفة التى تزورها باستمرار..

وكانت تسير ..لم تكن هاته المرة لتحقق نصراً ، فقد كانت هاته الدقات تنطلق بعيدا لتصطدم بالجدران والاغصان والاوراق دون أن تعيها أذناها : لقد أصبحت عملية استمرارية أبلاها التكرار .

وانطلقت الافكار .. ثم أصبحت فى عنف تَملكها ، تمسك بها فى أنانية غير مريحة .. وعلى غير علم منها ، استيقظ انتباهها الشارد على وقع أقدام مسرعة ، تخالط وقع أقدامها المنتظم ، فارتعشت ، كانت خائفة وسط كل هذا السكون ، وأمالت صفحة وجهها .. فوجدته هو ..

ذلك الذى تحتفظ بطيفـه فى عينيهـا ، يسير خلفها .. وبسرعة .. فاخترق قلبها شعاع لم ينطفىء ، وصاح لسانها فى مخباه :

ـ نعم ، لقد كانت انحناءاته لى أنا .. فالامر قد تبين .. لم يكن ينحنى (لسناء) حينما كنا نجتاز الممر المقابل معا ، بل كان ينحنى لى أنا .. لى أنا .

ووجدت نفسها تُسرع الخطو ، فتعجبت :

ـ كذلكم أنا .. دائما أفرُ من رغبتى .. أخاف أن التقى بها ! وصمَّمت :

ـ لن أفرّ اليوم .. سأواجهها .. فذلك أكثر اراحة ، وخففت السير ، فازداد صوت خطواته فى أذنيها .. وارتفعت دقات قلبها تفضح خوفها ورغبتها فى الفرار ، فاستمسكت ، تواجه بعناد هذا القلب القلق :

ـ لا .. لن أفر به ، سوف أتركه يُسجن .. يتمرغ ..! ككل القلوب ..

وأصبح قريبا منها ، فانتابها هاجس مفزع :

ـ قد يكون يتخطانى فى طريقه !!.. ربما ان كلا منا

الى وجهته !!.. ومرت برأسها صورة ذكرى كانت قد نسيتها، فضغطت عليها ..

وانطلق صوته يمحو الصورة :

ـ آنسة ؟.. اسمحى لى أن أكلمك ..

كان صوته حييا وعيناه فى قدميه ، فلم تجب .. لقد عاد اليها كل خجلها .. خجل فتاة ابتعدت عن المغامرات ، فكررها .. وحاولت أن تفتح فيها فامتنع .. وهالها ان تكون متكلمة وخرساء فى نفس اللحظة .. فتشجع وسأل :

ـ لا بأس أن أعرف اسمك .. أسمى محمود .. وانت ، الآنسة ؟..

كان صوته يتفكك حرفاً حرفاً ليتسرب كل حرف فى خلايا ادراكها فتجد له مائة طعم وطعم .. كان صوتاً جميلا قوياً حاراً .. أرادته أن يتكلم .. ألا يسألها .. أن يسير بجانبها .. هو يتحدث ، وهى تسمع ، ثم تطيع ..

ـ ما لك تصمتين ؟ أيسوؤك قربى ؟ ثم أضاف بلهجة محببة :

ـ أأنسحب ؟!!

فاخذتها موجة من الانفعال :

ـ ينسحب ؟!!.. أبعد أن أسمعني صوته وأشعرني بقربه ينسحب ، ليتركني وسط كل هذا الفراغ الكبير يأكلني .. وحرّكت لسانها لتجيبه ، ولكن الكلمات احتضرت في حلقها .. وأحست نفسها مضطربة وحائرة الى أبعد حد .. فصاح لسانها الساكت :

ـ كل هذا لانني رسّبت في داخلي أنني فاضلة .. لكنني فاضلة من أجل لا شيء .. فاضلة بغير حدود ..

ورد اليها اطمئنانها صوته :

ـ لا .. لن أنسحب .. فهي فرصة ترقبتها كثيرا .. انما أجيبيني .. هل تسمحين أن أكلمك ؟..

فارتسم على وجهها أثر بسمة كانت أكثر وضوحاً في داخلها : هو لم ير أثر هذه البسمة .. فقد كان لا يزال يسير بجانبها .. غير ملتصق بها .. بعيداً عنها قليلا .. ينظر الى تحت أو الى أمام .. وتعجبت :

ـ يطلب اذني في محادثتي ؟!!.. آه لو تراه يعلم كم أنا مشوقة الى سماع كل كلماته .. في حالة رضاه وسخطه !.

حبه وبغضه .. حنانه وعنفه .. وأحست نفسها أمرأة .. امرأة فحسب ، تتنصل من كل تلك العقد والتحليلات التى أكسبتها اياها ثقافتها .. لا شىء غير أمرأة .. تستعذب طلب رجل .. الحاحه .. متابعته ، وقررت :

ـ أنا فى الاخير أمى .. أمى التى لا تعرف شيئاً سوى هذا .. كل الاعوام التى زدتها عليها ليست ذات قيمة ، وأحست انمحاء هضبة ، زوالها : كانت تلك ثقافتها ومثلها انمحت فى لحظة ، فأصبحت أمها ، وصاحت أعماقها :

ـ ليس فى الدنيا ما يمسكنى بعد' عن متابعته ، وآلى ما يريد .

وسأل من جديد :

ـ اجيبينى ، أتسمحين بمكالمتك ؟

وكان تحرراً .. كان انطلاقا لكل كبولها حينما همست بحياء :

ـ تفضل .

ـ أريد أن أقول لك كل شىء .. أى شىء . وسكت برهة ، ثم أضاف بخجل :

ـ أريد أن اقول لك : انك أعجبتنى !!

وتوقفت على الدرج ، كانت أمام الباب ، وجعلته خلفها وغمغمت محتجة :

ـ كل شىء الا هذا . واستردت كل أعتبارها :

ـ تعبير بليد .. غير حقيقى .. هذا كثير !! . لن أقبله، فى هذه الحالة، اننى لست أمى.. أنا غيرها .. واحدة تعرف ما عندها وما تقبله من الغير . وأحست يدها تتحرك ، كانت تحتج .. تريد أن تصفعه لانه أهانها .

وبغتة أحست نفسها مثلجة . كان النداء الحيوانى يرعد فى داخلها . ثورة الحواس لا ثورة الكرامة ، فبحثت عن المبررات :

ـ لعله من النخبة ، الذين لهم بصيرة أقوى من البصر، وقررت بتيه :

ـ نعم .. هو من النخبة .. وهو لى ..

ثم استدارت .. فرنا أليها ثم حملق : كان وجهها قد زاده الانفعال قبحا .. وقبل أن تنطلق أية كلمة منها كان هو قد استدار يبتلعه المدى البعيد . وظل فمها مفتوحا وعيناها

جاحظتين وهى ترقب خطوه السريع ، واختفى .. فاختفى معه كل شيء : الامـل العريض ..والتنازلات الضخمة .. والوهم الكبير .. وصاحت وهى تضغط يدا بيد :

ـ لم يكن الا واحـدا منهم ، من الكـثرة .. من غير النخبة .. من الذين لا يصاحبون القبح الظاهرى : شباب اليوم .

وأسرعت نحو التى تظهر لها كل الحقيقـة ، فرأت فيها وجهها منعكسا .

ـ عينين ضيقتين .. وانفا عريضا .. وفما يكتسح تقريبا نصف وجه تتراقص فيه الثقوب ..

فقالت بألم امرأة مهانة فى أنوثتها :

ـ صعب جدا أن أعطى أعماقا ثرية ، واحرم من اطار جذاب ، انا الفتاة فى عالم مثل هؤلاء الرجال ..

حكاية لمسة ..

وبجانبك أسير .. أتحدى بك العالم ورفضى وبسمتها..
أحملق فى ظل رجليك ، كيف يزرع شبحى
على البلاط ، يرضخه لحكم نهائى : أننى أصبحت لك !..
أستظل بك .. برجليك .. برأسك الشامخ فى تحدٍّ يصحبه
من الغرفة ،، والكرسى .. والمحاولة القاسية ..

وأتذكرها : كل تلك الكلمات التى أسلتْها فى
مسمعك .. تلفحك بلوعة كبيرة يزخر بها داخلى .. فتشم
فيها هشيمى .. هشيماً اتقد قبل مولدى ، ولم ينطفىء بعد ..
فتتحرك فيك كل تلك الحمية .. حمية رجل يريد أن يصون
امرأة .. وتتفتح ، عن بهجة لم أعرفها ، تدعونى اليها وتقول:

ـ فى غابر عمرى ، احتفظت بها بكرا : بهجتى هاته ،
ومنعت ظلها عن كل أنثى .

فأتبعك ..

أتلقف هاته البهجة وفى أذنى النداء الآخر يرتج :
(عودى) .

فأردُ أنا :

ــ وكيف أعود ؟!.. الطفلة الضائعة فى أغوارى انطلقت
وكيف أعود ؟!!

وأمامك ..

أمامك لا شيء ينتفض .. كنتَ أمامى تمحو الغدَ و الآتى،
وتَنقَوْلِبنى فى حاضر هو لك.. تصنعه.. تهبه خصائصه ؟!
تزكيه بدفقات حنان على الضالة المستيقظة فى مجاهلى ..

وألاحظك ،

أتلقّف حركة يدك وأنت تسكب بها شراباً لى ..
وألمح جسدك الملقى على المقعد فى حركة فوضى هادفة ..
وأدعم رجلك المرمية فى اهمال رائع على أختها .. وانطلق
الى عينيك ، ففيهما نظرات لى : أنا .. تلك ألتى توزعها على
كثيرات .: لكنها لن تكون الا الى .. أتلهى فى لامبالاة كبيرة ،
بين فجاج غلظتها .. وسهوب لينها ..

وبين أصابعى كنت أداعبه : كأسك .. ألمس حوافه

فى اهتمام حنون.. وأرمى بكل نظرتى على سائله الذى لا أراه..
ثم أقذفه فى حلقى .. أرطب به جفافه وأنا أقول :

ـ من يوم ما عدت من منفاى ، فقدت كل مكان ..
حتى ذلك الذى خصصوه لى من قبل ، رفضته .. لانه ليس
لى .. هو لهم ، يضعوننى بين جدرانه ليطمئنوا على أنهم
أمّنوا خوفهم على .. لكنني ، لن أقبل ، أن يكون لى مكان
لم أصنعه أنا .. أبنى هيكله من أغصان الصنوبر .. وأظلل
ساحته بأوراق الكروم .. وأفرشه بالحانك .. وأزينه بها :
الجكوند .. ببسمتها المبتذلة .. ونظرتها الملاحقة فى استهزاء
ندى .. وجلستيها المستهترة ..

ـ ومتى ستفعلين ؟

ـ فى وقت ما .. غدا .. بعد شهـر .. بعد سنة ..
أو ، عند نهاية عمرى ..

وتغيبُ نظرتك عنى .. كنتَ واياهـا تبتسمان :
(الجكوند) فلم أفعل انا : أكره ان الاحق حالة للآخرين ..
بل نشرت ، وبلا مواربة ، غضبتى :

ـ أتضحك منى ؟..

وتسارع .. تزيل عن عينيك بسمتهما ، وتقول :

– أبدا . انما ، لِمَ لا تسارعين ؟ أن تلاحقى عمرك ، فتمسكى به لأنه انفلت منك مراراً ..

ولا يهم ..

أن يكون لى من عمرى يوم .. سنة .. لحظة .. أعيشها بالتمام ، فأروى بها كل السنوات التى مضت والتى ستأتى .. وأكتفى من عمرى بذلك ، وأتأكد من أنه هو كل نصيبى ، لأعود الى التمزق .. الى الاحتراق .. الى التيه ،، والى العذابات التى لا تنتهى .. أعايش فى كل ذلك وجودا مضطربا بارهاصات هى منى .

وتنشر نظرتك على كل هيكلى ، لتقول فى قحة لم أبتلعها:

– أنت جميلة .. فلم العذاب ؟

وتتقلص ، جلستى .. انطلاقتى .. حتى كلماتى .. وأمنعك من أن تظل تلاحق أشيائى بذلك البصر النسرى .. فهو يجرحنى .. يفضح أمامى شيئاً لا أريد أن أعتقده : أن ليس لى الا جمالى !..

ثم ..

أهكذا تراني ؟!!.. اطارا منمقاً يستثير الابصار فحسب.. يوقف اهتماماتك على هيكلي، لتنبذني أنا.. فأتقوقع من جديد في قناعي المزيف .. ذلك الذي ألقى به كل الآخرين.. لأضحك معهم وأنا أبكي .. وأتكلم وأنا أصمت .؛ وأتقبل وانا ارفض .. وأتموضع مع انني فقدت حدودي ..

.. وأين جلستك ؟!.. وانت على مقربة ، تعبدْ فيَّ شيئاً لم يمس .. وتتحرك من اجلي أوتارك ليتفجر منها اللحن البكـر الذى لم يسمعـه من قبل ، أحد سوانا !..

ولا تمهلني ..

اذ تعيدني ، الى سؤالك ، باعتدادٍ له وجاهته :

– لعله فشل ؟ هذه بقاياه ، أيأستك .. لكن أعيدي .

ـ لو كان فشلا أصابني لاقتنعت به ، لانه سيسطَّر في سجلي ، فأقتنع بأن لي أنا أيضا فشلي .. وأنا ؟ لا انتصار ولا فشل يصنعني .. فمن زمان .. حينما كنتُ لا أملك أجهزة اصنع بها اطارا لي ، اضطرب شعوري عن يقين بأنني لن أتراجع مع فشل ، ولن أغترَّ بانتصار ، فأنا لن أهب لكل منهما الا برهة لأظل في مسلكي ، ذلك الذي وجدتني

فيه ، اشهد فيه فظائع أفراح .. وبسمات أتراح .. ووجودا عاماً فقدَ الاكتفاء والاستقرار والتحديد ..

وتعييك كلماتى .. ترفضها رجولتك فى رغبة واضحة، تريد أن تظفر بغيرها .. بشىء يلمس ، يمسك ، فى محاولة هجومية لم أعرفها سابقا .. ولكننى أحتمى باعتقادى .. أننى فوق الايدى ، فوق الامتداد ، فوق الاحتضان المشاع ..

ومع اعتقادى نرتطم ، بالآنية .. بنغم شهر زاد .. بالسقف المنهار .. والارض المزلزلة .. لنقع فى جلسة مقيدة وقد تعطلت كل أجهزتى .. فكرى ، أحاسيسى ، تمردى .. سوى هى : «لجكوند» .. ببسمتها المتعالية فى آستهزاء مر .. وسوى انتحاب مفجوع يصيح من غلبتى .. وابكى .. أبكى ، عليك أنت .. ياغولا انفض على روعة النعومة فى ، فأفزعها فى محاولة أرفضها والى النهاية ..

ولا أتنفس الا وأنا قد فقدتك ، تسير بقربى ، ولكنى مع الآخرين كنت .. أبحث فى وجوههم عن وجه له غير عينيك .. غير يديك .. غير اعتدادك الجهنمى .. يأخذ براحتيه يدى ، فى لمسة خاشعة .. تحميها من هجير وحدة لا زالت

لي حتى وأنت تسايرني .. تسكب في أذني المغلقتين
اعتذاراتك المدروسة ، وتبريراتك التي أقنعتك وما أقنعتني..

ونظل نسير.. أبعد جفيف خطوتك عني بشهقات حذائي..
أحتج في كل خطوة على انك تصحبني، فأنت لست لي.. فالآخر،
ذلك الذي منحنى ظل رجليه قبل مدة .. هو الذي كان لي ..
أما انت ، المنتصب في مشية كاملة بلا ظلها ، فانك لست
لي .. لقد تركتك في مكانك .. والى الأبد

الشيخ والارض ..

عيناك .. ياعويل لعنـــة يمرق خلف كل زجاج ، تلاحقنى ، تفضح أمامى غفلتى عنك ، عن الفم المتهدم .. على الوجه الفانى ، عن العينين الغائبتين .. والهيكل المقوس .

وتعذبنى حشرجتك : نستجدى !! ، تريد أن تحافظ على بقايا ايامك ، لتشهد كل اجرامنا ، كل حيوانية مؤنقة سلبتك نصيبك .

وترتعش الكلمة بين شفتين فقدتـا قدرة التلاقى : « حسنة لله » ، فتنعدم كل الحسنات من دنياى ، أحسها تنقلب فجأة ، الى عوالم وحشية تفقدك اللقمة والاهتمام والكساء ، وتحرمنى أنا .. أن أتفيأ ظلال انسانية حقيقيه تعاش ..

وتمسك أصابعك بحافة الزجاج .. تدعم بها وقفتك

المنهكة ، وتترك الوجه يطل عليّ من وراء سمكه ، يفرض عليّ واقعك فى عنف قاس .. فألمس الاصابع بيدى .. أسيل عليها كل حنان لم يتفجر قبل.. وترفع نظرتك، تهبنى اياها.. فأحتضن فيها كبّرى ، شيخوختى ، هلعى من عجز لا يؤمّن فى بلادى ..

وتظل نظرتك عندى، أغطيها بعبرات اضطربت فى مآقي، ثم أقف ، أغادر الحافلة اليك ، يا وحشة عذاب فى نهاية المطاف .

وبقربك تتعرى أمامى نتيجة أعوام ضيّعتها .. أتلفتها على متن ضبابة لا يسكنها أمثالك ، أتغنى فيها بكلمات لا تعيها أنت : لا تفهمها ، لا تنقلك الى الآخرين : جناية فظيعة تفضح بناء اقتصادياً مهلهلا .

ونقبع مع بعض .. أكتشف بك غلط سهوى ، خيبة ماضى ، حقيقة دور أريده أن يكون لى ، وترى فيّ أنت .. التفاتة كان يجب أن تكون لك ، منذ أن سلبك الاجنبى ضيعتك ، ورمى بك ألى المدينة ، تواجه الخصاصة ووهن الشيخوخة وتعجرف الكبار ..

وبجهـازك الصوتى الصدىء .. ذاك الذى تعطل عن

الاستعمال ، **فاقتصر انتاجه على كلمات استجداء تتكرر ، سألتنى :**

«أهذا حق؟! ، ألا تعاد الىّ أرضى ، أن يسكت عنها الآخرون لاعيش شيخوخة محتاجة ، من قبل ، حينما كنت أقوى صحة من الآن ، بذلت هاته الصحة هنا ، بين آلات المصانع وفى التجوال بمبيعات خفيفة ، والآن ، لا حول لى » .

وأجيبك بأسى حقيقى : كل هذا لانك هنا ، لانك فى بلاد لا تنتج الا الغصص لبنيها ، تمتص جهدهم .. طاقتهم .. فاذا استنفذوا هذه الطاقات ، رمت بهم الى الشارع ، ويا ما أطوله ، لينضموا الى زمرة الاشباح التى فقدت كل شىء سوى كلمة لقنت لهم : «حسنة لله» .

وأرضك ؟!! ، تلك حكاية ترددت كثيرا ، سمعناها فتلذذنا بما قالوه عنها ، صدقناه فى طيبوبة ساذجة .. ثم انتهت الاسطورة الى صمت غامض أختنق حتى الصدى فيه ، لكى لا تبقى الا أنت.. بجوعك ، بعريك ، بعدم امتلاكك لقمة خبز من غلتها .. تكشف لنا بكل ذلك ، الوجه الحقيقى لدور يخفونه فى قضية نصيب التلاعب فيها أكبر من نصيب الاهتمام .

ولا تفهمني .. فأخفف عنك ، وأسليك عن شيء أتأكد من انه لن يكون لك أبداً .. وتنسى ، تنسى سؤالك وتقبل عليَّ ، فأتوغل الى داخلك ، بَلْسَماً يريد أن يُشفى كل جرح حفره الفقر والعجز والمرض والاغتراب ، أن ألمس أثر أظافر النهمين لينمحى ذلك الأثر فى فرحة صادقة أتمنى أن أراها فى الوجه الشاحب المتغضن ، ولا أستطيع ، عبوسك أكبر من محاولتى .. حفره كثيرون هناك ، فى داخلك ، وطبعوا به كل شخصك ، يعلنون به قدرتهم ، وتفضح به انت عاراً كان يجب ألا يكون .

وأسألك .. عند ما أعجز فى محاولتى ، فترد عليَّ :

ـ سبعون سنة ، أحملها لوحدى ، بلا أبناء .. بلا اهل.. بلا أرض .. بلا أى أحد !.. أجرجرها فى ذل كبير أطلب لها اللقمة نهارا لارميها ليلا فى يأس فظيع فى ركن من الشارع !!.. وأين أرضى ؟؟

وبهمس مر أعدها ، أعوامك : اربعين ، خمسين ، ستين ، سبعين ! ، اعوام تتكاثر بلا اى أحد !! فكل هاته الجحافل الساهية لا ترتبط بك ، لا انتماء بينكما ، تركت لك ركنا وسخا بشارع ما ، ترتمى فيه نفاية منبوذة لا نصيب

لها فى بناء .. فى وطاء .. فى علاج .. فى ضمانة يجب أن تكون لها ، غير أن النفاية تحس وضعها ، تشعر برزئها فى أدراك آنسانى ، لم تفسده لا السنون السبعون ، ولا الركن الوسخ ، فهى تحتج عليه فى اصرار كبير حينما تمتنع عن بسمة لن تكون لها آشراقتها فى الزاوية المعتمة ..

وأين أرضك ؟!.. فى صوتى كل أصوات المطرودين والجائعين ومن ليس لهم لسان : ـ أين أرضنا ؟.. بالتمام .. بلا مماطلة .. بتوزيع متقن لا يوجهها لتملك الاسياد .. كل الذين يتلمظون بكبر جاهلى ، فى احتياجنا المدقع ..

ثم لا أستطيـع أن اتحرك .. أراك لعنـة سرمديـة تنصب على حياتى ان أنا تركتك .. فأتعلق بك .. وتصبح كل شىء عندى : عجز أبى الذى يجب ان أرعاه ، وشيخوخة لأمى أترقبها ، ومصيرا لى أخافه ، وعذابا بشريا أريد أن يكون لى منه نصيبى ..

ومن بعد .. أظل أسير .. مملوءة بلقياك ، فتعترضنى عمارات متعجرفة .. واجهات زاخرة بما فيها .. شوارع اكتسحتها الاحذية الانيقة .. سيارات جذلى بمن فيها .. ولكننى لا أجدها :

نظرتى ، تلك التى كانت تعانق هاته الاشياء كلها فى تسكع هارب ، توقف خطوى آمام محتويات الواجهة ، لابعثر بينها عجبا صغيرا يتنقل من هنا الى هناك .. فأنا الآن أنكر كل هذا .. لا أراه ، أقطعه في احتجاج عابس ، فهو ليس لنا ، هو واجهة مزيفة لوضعنا ، تزورنا ، تكذب علينا وعلى الواردين ، ترمى في بصرنا دفقة كبيرة خاطفة من نور هو لغيرنا .. لنعمى عن رؤيتك يا رفيقى .. يا وجها صادقا لبلادى.

المتشردة ..

ارتفع اللغــط بشدة ، وطن فى أذنيهــا دوى هائل .. كانت تلكــم انفجارات داخليــة متلاحقة .. تبعثر كل موجوداتها وتعلن عن بداية ما ..

وبعنف الانفجار ارتمت ، كتلة مضطربة على كرسى ، وشدت يدها بتوتر متشنج ، واسندت بالاخرى رأسا مثقلا ، ودمدمت كمن يزفر بتقطع :

ـ الشوق المحرق الى المجهول ، واللوعات المشتعلة الى الغيب .. والحسرات المضطربة الى المختفى .. وداخلى حرق ، أشواق .. انطلاق .. بحث .. سعى .. بلا تحديد ، الجهة اليسرى فىّ تتحرك ،، تنفعل .. تريد .. تنفجر .. وأنا هنا، فى البيت الضيق أكمش وجودى وأمحوه من عالم الاحياء ..

* * *

ـ غيرى يتناولنى ، الآن .. ليسكب على كلمات .. تنطلق تلك الكلمات من فم ذلك المجهول لتقع على منطقتى

فتثيرها وتفجر فيها ما استقر ..

* * *

ـ أنا ثائرة .. بى لهفة مسعورة لأن ألتقى .. أن أجد .. أن أذوب .. أن أشتعل .. وأن احرق ان افنى .. آلا أظل أعايش هيكلا خاملا . ألقى المجهول .. أصادف الغيب.. أذوب فى اللاشىء .. وأفنى فى غير المحسوس .. وأخلد فى غير المرئى .

* * *

ـ الزمجرة ترتعش من كل ذرة فى .. تعلن انطلاقتى .. انتشارى .. امتدادى .. تمزق الانكماشات القاحلة فى مناطقى .. أنا الصحراء التى تخفى متفجرات مدمرة .

* * *

ـ الاعلان هائل يصيح بوثبة التحرر .. منى انا .. أنا القسوة .. أنا اللين والانسياب .. أنا الرواسب المتوحشة لكل الجنس البشرى

* * *

ـ الطين يتفتت .. طينى أنا ، يضيع بين عويل الزوبعة.. الى الفناء .. وأنا هنا ، قد اكتمل تحررى : منى .. من وسطى .. من عالمى .. من الحياة التى سكبت فى .

* * *

ـ وأضيع فى عمر الزمن ، ثم أهتز اهتزازة الخلق من جديد ، وأرنو .. فأجدنى الضباب المنتشر.. والسماء الممتدة ،، والارض المنطلقة .. والفراغ اللانهائى .. والانسكاب السرمدى فى المشرئبين الى أعلى .

وأصيح بمنطق كل الاجيال : أنا الحياة .. أنا الحياة .. ذوّبتها ، شربتها بكل نهمى .. ثم أفرغتُها بذور عطاء فى شساعة نفوس ثرية ..»

* * *

وانتبهتْ :

فتحرك فى وقفة مرتبكة :

ـ منطق جنونى !..

وأراد أن يسير ، أن يغادر المكان .. فوصل الباب ووقف ، ثم عاد منتصبا وراء مقعده :

ـ ألا .. ألا تتركنى هذا ؟!.. صعب عليك أن تحملى كل هذا الغليان ..

ولم تكـن تسمع شيئاً ، كان فمه فى حركـة فتح وانغلاق .. وكانت نظراتها تتخطاه .. تخترقه ،، تخترق الجدار .. البيوت .. المدينة ، لتضيع فى اللامحدود .

وظل فى وقفته ، يأخذ من عينيها المسمرتين قدرة على

صب كلامه ..

وتأوهت :

ـ أأنت هنا ؟!

ـ وأين سأكون ؟

ورد عليه تململها :

ـ فى أى مكان الا هنا .

ولكنه خطا واقتعد . وقال بعاطفة تمجها :

ـ انظرى الىّ .

ـ أنا !!!؟ : باستغراب سألته .

ـ ومن سواك أريده أن ينظر فى ؟!

فاضطربت فى داخلها ضحكة .. أطلقتها .. فزغردت فى كل زوايا القاعة .. ثم سقطت فى ندم حانق .. ولم يدرك فتلعثم :

ـ أنتِ !! ، اما أن تبخلى أو تمنحينى الكثير !..

فقالت له نظرتها :

ـ كذلك أنا !! . فأجاب :

ـ وأنا كل ذلك الذى تتطلعين اليـه .. أنا الغيب مجسما .. وأنا المختفى موجودا .. وأنا التربة التى تتلقف فيضك .. امنحينى ..

ووقفت واستدارت .. كانت قد تركته فى مقعده ، بعيدا عنها .. يتكلم مـع شبحها ، ذلـك الذى يَتَـلايَن لان يسلسله ، فيفرض عليها أن تتشخص به .. وحده ، وتطلعت الى السماء ثم تمتمت بشرود :

ـ ذاك مكانى .. فعبره ، أستطيع أن أتلمس الارض.

وتزحلق بصرها من علٍ ، فوقع على رؤوس ينغرس بصرها بالاسفل :

ـ هؤلاء أبناء الارض .. أقدامهم لا تفارقها .. انهم مرتبطون بشىء.. يحسون صلابته .. وأمالت صفحة وجهها فوجدته :

ـ هو هنا !!.. أحدهم .

وبعزم جلست ، وقيدت وجهها بين كفيها ، وحملقت فيه ، كان يزرع وجهه بين حزوف جريدة :

ـ هذا الانسان ، تربة غير منفوشة لتقبل اوضاعى ..
ولحظاتى الضائعة فى خضم تناثر أو انفجار .. فهو يريدنى
صنماً .. أتغير ثلجا بين ذراعيه .. يحولنى الى هيكل ينحنى
لاشاراته .. لرغباتـه .. لنداءاته .. وما ذا سيمنحنى ؟!
طولا .. وأكتافا .. وذراعين تتعلقان بى ، يمسكان بى عن
الانفلات .. لابقى له .. له وحده .، لبيته .: لقيده ،، لابنائه :

ـ عمر ؟ . بانفعال نادت .

ـ ما ذا ؟..

وظلت تركز بصرها عليه .. على الشخص الذى أراد
أن يكون لها .. على الظل الذى أراد أن يغلفها .. على الدنيوية
التى تحاول ان تُطبق عليها فتخلق منها بشراً .

وأعاد :

ـ ما ذا ؟

فتركت بصرها عنه ووقفت .. كانت تيارات متضادة
تطحن هدأة نفسها وتدفعها لان تضيع فى سير عشوائى .

ـ أريد ... أن انطلق .

ـ هيا . وأسرع يبحث عن معطفها ليضعه على كتفها .. ولكنها انفلتت .. تركت له دفئه بين يديه .. وأسرعت تصارع البرد ، وتغالب الاعصار باشتعالها ..

وسارت .. تاهت .. ترفض هذا الوجود الموهوب لها .، تبحث في اصرار عن وجودها .. عن مكانها .. عن السبل التي هي لها ..

وأخذها صوته :

ـ الى أين نسير ؟

فتوقفت ، وبلهجة بين التوتر وادراك الذنب أجابت :

ـ لا .. لن تسير ..

ثم من هول تشردها استلهمت نظرة حنو غلفته بها وهي تقول :

ـ ينبغي أن تقف .. انت .. أن تستدير .. أن تعيش لنفسك .. لطمانينتها .. لانسيابها المعتاد .. واتركني اسير .. لوحدي .. قوة الانطلاق في قدميّ لن أستطيع أن أوقفها .. ستظل تسير .. وتسير .. قد تقف : فانتهي كليا ،، وقد تكل فأسقط ركاما ترابيا على أرضك .. عند ذاك عُدْ

الى .. ستكون بقاياى الى .. اجمعنى ، حن على فشلى ..
أو اضحك على آنهزامى .. وانا ، لن أكون لك الا كما تريدنى :
هيكلا .. اطارا .. قسمات .. بسمات .. ولست الآن هذا ،
أنا غيره .. لن نلتقى ،. أريد غير هذا .. اتركنى أبحث
عنه .. وترقبنى ان فشلت .

وباندحار سأل :

ـ أهذه هى النهاية ؟!

ـ .. هى كالبدايــة .. انت أردت ، فلا تلمنــى ..
واسرعتْ .. فالتحق بها ورمى على كتفيها معطفها وتسمّر ،
فامتدت يداها فى غيبوبة وقبضت على أطرافه تلصقه بها
فى رحلة تشرد أخرى ..

⊠

بيت التعارف ..

.. ثم نزل درجتين ، ولم يزد .. وعاد فصعد

وردد ثلاثاً أخرى ثم توقف .. وقال مستنكراً :

– كأننى اليوم لست أنا .. أنا غيرى ، شىء يسير

كما حدث ، يبلبلنى .ثم عاد فنزل كل الدرج وقعد :

ـ سأتناول طعامى فى الطابق الاسفل من هذا المطعم .

وبحث عن استقراره ، فلم يجده .. فتعجب :

ـ كأننى قد تركته فى البيت عند ما قررت أن أتناول

الغذاء خارجه .. ثم فكر بهدوء :

ـ بهذا السلوك يستردنا البيت اليه ، كلما أصابتنا

منه تخمة !..

ولكنه لم يرد أن يقتنع فردد :

ـ لا.. لا ، الحقيقة أننى أريد ان أستريح .. ألا تتبعنى

مشاكلهم الى هنا .. أن تـُترك لى حريتى خارج البيت فأتناول الغذاء فى مطعم عمومى دون أن تلاحقنى تبعات العمل الى هنا.

وقفزت يده على محفظته فالتقطتها ، ثم صعد كل الدرج.

وتسمرت قدماه :

ـ آى !! ، انها هنا .. امرأة .. أنا وهى وحدنا !..

وانتصب أمامه كل نهمه وخوفه وهروبه ... كان احساسا مختلطا ، وقرر :

ـ لن أكون ضعيفا أمام نفسى فأفر ..

وكان عذرا واهيا ، وتقدم .. فاتخذ لنفسه مقعدا .

وظلت هى تسير قرب النوافذ .. تتطلع منها الى تحت ، ثم لمحته ، فتركته .. كانت مغتمة ، فتأثر :

ـ لربما عرفتنى .. لا .. أنا لست رجلا مسؤولا .. أنا رجل فحسب .. لى ميولى .. ورغباتى .. وماضى : وغاب عنها فى تذكر لذيذ لماضيه الثرى ، ثم عاد فوجدها أمامه تجالسه ، وفى فمها سيجارة غير مشتعلة . وحملق فيها وانتفض ، ثم تغير بسرعة :

— لا ، هذا غير ممكن !.. ابنة مدينتى تتدنى !.. تصبح مثل غيرها .. ترمى بكل ماضى بلدتها وعراقة تقاليدها !..

وانتبه فوجدها تنظر اليه فى احتجاج غريب .. فبحث فى جيبه عن المشعل وألهب طرف السيجارة بين شفتيها ، فانطلق دخان يتعالى باعتداد ، بينما قبع هو فى مقعده .. كان يحس لطمة ابنة بلده .. اهانتها . وجاءته رغبة فى أن يطردها .. ان ينتقم منها للاخلاق .. للتربية .. للسمعة التى استهترت بها بنات مدينته .. ولكنه لم يستطع .. فقد كان جمالها يمنعه ، وغالب نفوره .

— لأتعقل .. لاضبط كبريائى السخيف من ان يتحكم، فاضيع فرصة يريدها كل كيانى .. فابنة مدينتى امرأة .. مثل نساء المدن ، وانما تموهت لزمن وراء طلاء كاذب من الفضيلة .. ها هو ينتهى فتنكشف أمام حقيقتها : انها امرأة فحسب .

وانتشلته من صراع المسؤول والشيطان فيه :

— لم يعد المكان كعادته .. فهو لم يمنحنى بسمتى .. لقد ترك لى تجهمى ..

ثم رمته بنظرة استغاثة ، ولكنه لم يسرع فتأوهت :

ـ أأنت من هنا ؟

ـ نعم .

ـ يظهر عليك أنك من مدينتي ..

وأحس بامتعاضه يعود اليه ، فأسرع يجيب هارباً :

ـ لا .

ـ أنظر الىّ .

وجاءه الطلب مباغتاً .. ولكنه كان يستطيع أن يفعل.. لانها امرأة .. وجميلة .. ففعل .

ـ هل أعجبتك ؟

وكان سؤالا سخيفاً : سؤال امرأة .. فقبله .

ـ نعم .

ـ فلماذا لا تحدثني !.. أأنت فاضل ؟!!

وجرحته .. ولكنه أجاب صادقاً :

ـ لا .

فاطمأنت وقالت :

ـ كلكم كذلك . وفكرت برهة ، ثم نطقت :

ـ اذن نحن سواء .

فتمتم :

ـ هكذا حكمت .. وبسرعة : أنا وهى سواء ..

وتعجب :

ـ من مدينة واحدة ، وفى طريق واحد .

ولكن كبرياءه : كبرياء رجل .. لم يرض ، فاحتج :

ـ لا.. لا يمكن ، انها دونك .. فأنت رجل !!..

ولم تهتم بسرحته .. كانت تتكلم :

ـ عادة أفر الى هنا ، فأقتنص بسمتى ، الا معك ، فان بهجتى قد ضاعت فى لجة غموضك .. لكن لا ضير ، فلربما أعرفك .

ثم تفحصته كله وتابعت :

ـ لا يهمنى أن أعرفك .. يكفينى منك أنك ذلك الجنس

الآخر .. فانا أريد ان أتسلى لا أن اعرف .

ورمت لقمة فى حلقها ثم زادت :

ـ اليوم ، كنت سأتناول غذائى فى مطعم (...) ولكنه لا يتوفر على طابقين مثل هذا .. فخفت أن يرونى فيه .

ـ من ؟؟

ـ أهل زوجى .

وبسرعة غير لبقة سال مستغربا :

ـ اأنت متزوجة ؟؟!

ـ نعم .

ـ واين زوجك ؟

ـ فى البيت يعانى ثقل اعوامه .

ـ أهذه عادتك ؟.. أن تتركيه وتخرجى ؟!

ـ لم تكن عادتى .. ولكنى ، فى بيته تعلمتُها .

ـ ممن ؟ ، منه ؟

فأجابت متذمرة :

- لا ، بل من حياة ربطت بين شيخوخة وشباب ..

وسكتت ، فسكت .. لقد عرف ما ينقصها ، ومسحت فمها ثم دفعت :

- ما ذا تفعلين ؟

- لا شيء .. انما ادفع الثمن .

- لا يصح ، فأنتِ ضيفتي .

- انما أنا التي أضفت نفسي عليك .. ولكن لا تهتم ، فأنا لا أريد من الرجال هاته (وأشارت الى الاوراق المالية) ، فهناك واحد .. زوجي .. يترضاني بالكثير منها ،

وفهم .. ثم وقفت وهي تمد اليه بطاقة التعارف :

- لا بد أن تزورني .. سوف أنتظرك .

واستغرب وقال بتلعثم :

- في بيتك!! بيت زوجك؟.. تستطيعين أن تستقبليني؟!

فربتت على يده مطمئنة :

- لا تخف .. لستَ في حاجة الى مغامرة للدخول ..

ليس هو عنوان بيت الزوجية .. ولكنــه عنــوان بيت .. بيت .. التعارف .

وظل هو يحملق فى الورقة .. فى عنوان البيت الثانى للزوجة الشابة .. فى الوكر الذى تلتقى فيه بغير زوجها : بالشباب .

ثم اخفاها فى جيبه .

* * *

ودخلته : بيتها الثانى ، كانت تقصده فى انتظار زبون المطعم :

ـ لقد تأخر .. لم يأت، مع أننى التقيت به امس الامس.. عادة أنهم يأتون سريعا .

وعند الباب تذكــرت :ففتحت صندوق الرسائل ، كانت به كالعادة رسائل متعددة من الرفاق :

– هذه من حمادة .. وهذه من سعيد .. وهذه من سوسو (اسم التدليل الذى تطلقه على اسماعيل) ..

ثم عثرت على استدعاء من مركز الشرطة .. فانمحت

بسمتها الكبيرة التى تفتحت فى داخلها لاستقبال رساله «سوسو» ، وتذمرت قليلا :

ـ عليه اللعنة .. لا زالت قضية حادثة السيارة التى وقعت له وانا برفقته تلاحقنى .

ثم وضعت الاستدعاء فى محفظة يدها :

ـ سوف أنهيها الآن .

وخرجت .

وفى مركز الشرطة سلمت اليهم الاستدعاء ، فأخذها الشرطى الى فوق .. وأشار الى باب مكتب وهو يقول :

ـ هنا .

فوضعت بسمتها على ثغرها .. ثم دفعت وحركت المزلاج وخطت .. ولكنها تسمرت أمامه : أمام زبون المطعم .. عميد الشرطة .. فصاحت فيه بتنمر :

ـ ما هذا ؟؟

فرد عليها بتعال مذمر :

ـ انه بيت التعارف !..

في موكب الجائعين ..

(١١)

قتامة دكناء تظللنى ببلادة وانا لا زلت فى وسط الخط أنتظر .. لعل السماء هى أيضا تريد أن تتضامن معهم ، فتمطر رعشتُها فى أبداننا سيلا هائلا من سيول هذا الفصل بعينــه . وأحدق بعينين غير عينى الماضى : عين الشاب الفطرى الذى يبتهج ظنه بالحياة والاحياء .. فأجد أن علىّ أن أقبع فى مذلتى زمنا أطول .. فلا زال سيل الرؤوس المختلطة ينتظم أمامى فى صف طويل.. طويل .. لا يبلغ غايته الا بجهد يميت كرامة الانسان فى هاته الارض وأستدير .. فمَن ورائى يشحذنى بطاقة من العزاء ، فأزداد التصاقا بموضعى .. وبأننى حقا لست وحدى.. أنا عشب تألفَ فى كتلة الحطب البشرى اليابس بفعل الجوع والزمهرير . وأراه : الخط .. لا زال يفتقد بدايته ، فمَن ينتسبون إليه كثيرون ، لانّ حركة الانتظام فيه لا تتوقف أبدا .. فتصورتنى فى دائرة ما لها نهاية .. تلف المدينة ،

وتكون نقطة التقائها عند عتبة ذلك الباب المفتوح كجحيم ..

اللعنـة المستديرة تلف خصر المدينـة وتحشرها في محيطها .. تنغص على المنزوين بين لفائف الاغطية وحرارة المدفأة ووهج العيون حظوتهم تلك .. وتحفر فى جباههم لعنة مدينة هى لعنة جيل جائع عبَرَ أرضاً ثرّة الخيرات والبركات .

وسرتْ فى الموكب رعشة .. كانت وحدها هى ما لهم من علاقة بالحياة .. وتزحزح مَن أمامى ، فملأتُ موضعه .. وانتفض الخط أمام عينى كأفعى بلا سم : ذلك الباب ابتلع لها راسها فلم يعد باستطاعتها أن تلدغ .. أن تتلوى فى حركة همجية الانتفاضة .. أن تمنحهم سمها ، ليجربوا مرارة الألم.. فهم أذكى من هذا الحيوان الطويل المكون من حيوانات كثيرة .. حينما أخذوا له فمه وملأوه له ، لوقت اكتسب مهانة التوقف عن الخصب ، **بطحين اجنبى .. بزبد اجنبى .. بخرق اجنبية ففقد شخصيته ، وفقد سلاحه ، وظل معطلا ينتظم ببلاهة شوهاء من اجل ان يمد كفا عليها ملامح عزة ذابلة .. كالآخرين .. كالذين مدوها وراء المحيط .. ليؤطروا اللعنة .. لعنة أرض يحقّر بنوها .. وتمنيت لو كنتُ راس هاته الافاعى ، فلو ..لتسللت داخل كل الابواب ..فى بذخ**

كل مكتب .. بين أذرع جميع المقاعد .. ولغسلت جبهة هاته الارض من لعنة بنيها ..

ولكنى لست رأسها ، أنا فى الوسط ، أنحدر عنه بمهل قتّال من أجل لقمة هجينة .. والرأس أخذوه ، وتركونا جسما فقد سلاحه . وهم يتلذذون بمشهد أفعى معطلة ، تدب نحو عطاياهم بذل أشد فتكا من السم ، فمن لى .. من لى بمن يحول فظاعة نقمتى : نقمة الصانع ، الذى انهار سوقه فى هذا العهد .. من يحولها لى الى قوة .. الى طغيان .. الى اعصار يستطيع أن يعيد للمدينة والحياة والاحياء وجههم الحقيقى ، المغسول من حقارة موكب جائع ..

وتطلعت ، أحملق فى الوجوه .. فلعل وجها ينبىء بعزم ما : هذا اقبرت فيه السنون كل تطلع ولم تبق فيه سوى قمة .. وذاك لامرأة يظهر أنها تحملت من عمرها أكثر مما تستطيع ، فانهد هيكلها فى انهزام مر .. والآخر لشاب جف عوده فجف فيه ، بسبب ذلك ، كل تشوف .. وذلك البعيد ، لطفلة صغيرة كان ينبغى أن تكون محاطة بمعطف دافىء فى قاعة درس.. والآخر؟.: انه صديقى :: أهو أيضا حضر !؟.. ان وجهه ملطخ بمهانة رجولة تداس .. أخبرنى قبل أيام ، ان المعمل الذى كان يشتغل فيه قد أخرجه :

ـ المعمل لم يعد فى حاجة اليك ، انه يكتفى بعدد معين من العمال .. فالسوق لا يستهلك كل الانتاج بسبب المزاحمة الخارجية .. وعدم ضبط المراقبة ..

فطأطأ رأسه بذل جروٍ ضاع عن أمه فى بيداء .. وخرج دون أن يفهم من كل تبريرِهم ، سوى انه مفصول عن لقمته .. وخارج الاسوار وجد سياط البرد ، ولدغات الجوع ، ومهانة الاحتياج .. ثم ، موكب رفاقه ، الكثيرين تحت سقف منهار لمدينة مشلولة الاوصال ، فانضم اليهم .. لا شك .. بعد أن عانى عراكا فظيعا قبل أن يفقد كرامته ، كما عانيت ..

وأخذتنى أصوات عنيفة مختلطة .. كان ذلك عراكا بسبب تدهور طاقة التحمل عند أفراد الصف .. فهم ـ وقبل الصبح ـ يتحملون عذابات الوقوف والبرد والانتظار والزحف البطىء نحو باب بيع الذمم ..

رفاق كثيرون كانوا يمزحون بغيظٍ وهم يسألوننى : ترى .. ألم تأخذ بعد ورقة انتسابك لحزب بيع الذمم ؟! وكانت فضلة من كرامة تثور فى ذلك الانسان الآخر الذى كان أنا .. ولكنهم ، وبقسوة ، ترعرعت فى هياكل جففتها

الاحتياج ، كانوا ينهقون :

ـ حتى بيع الذمة ليس سهلا .. على الفقراء بالاخص ، فعلينا أن نقطع من أجله مراحل معينة : ذل الحاجة كما لا يخفاك .. التفكير فى الامر .. مغالبة النفور ،، قهر النفس،، السؤال عن المكان .. القيام باكرا لقصده .. الانحشار مع أفراد الجماعة .. التحرك السلحفى للغاية .. ضرورة الصبر الايوبى .. الوصول .. مـد اليد ،، القدرة على تحمل نظرات وكلمات المكلفين ومن فى عونهم ; الحراس .. أوف .. مـا أقسى أن يضطر الانسان لان ينخرط فى حزب ، هاته مراحل الانتساب اليه . وقربت .. فكانت كل الارجل المثلجة تنغرس فى بواطن قلبى ، فتلاشى فى نكبة ما لها حدود .. واحسست دمعة هائلة تكاد تطمس معالـم حياة ذلك الطفل والشاب والرجل الذى تقلب بين أحضان أسرة محترمة من أسر هاته المدينة .. وهدر فى سمعى ذلك الحكم المسبق الذى ، اسمعه، أقرأه ، أفهمه ، من كل صوت وكتاب ونظرة :

ـ لا شغل ـ لا شغل ـ لا شغل .فزمجرت فى داخلى رعدة أسدية أعادت الى طفولتى وشبابى ورجولتى .. ونفت أن يستطيع اى كان ، ان يمحق من أعماقنا ، نحن ، أفراد

موكب الجوع فى مدينة التخمة ، ذلك الشعور بأننا انسان ..
بكل كرامته وقداسته وضرورات حياته .. ووجدت قوة لأن
أزمجر في كل وجه هرم .. وجسم واهن .. ويد مستجدية ..
وفم ينتظر ، صيحتى :

– الشغل – الشغل – نريد العمل ، نريد أن نمسح لقمتنا فى عرق أكتافنـا ، وتشققات أكفنا ، وحفر وجهنا ووهن يومنا قبل أن نرمىَ بها فى جوف ، يومن بالكرامة قدر ايمانه بالخبز ..

ولكن صوتا ، ذا بحة خفيفة سبقنى :

– الى الغد .. لقد نفذ كل شىء .. الى الغد ،

فامتزج كل الصف ثم انتشر .. وضاع بصرى فى المشهد .. وتقطع صوتى فى ضوضاء الجموع .. وضعت انا فى صوتى .. وحملنى هذا الصوت لان اطرق ابواب عالم مجنون .. وكدت أن أدخله .. لولا أننى عثرت بمرفا عينين دامعتين ، شاخصتين الى السماء بدموع كل الجائعين .



النظرة المتواطئة..

مئات البسمات تتبخثر فى الفسحة بجذل ، لتتكدس عند اقدام طاوولتها : جثثا هامدة ، ينحرها عبوس طاغ من الوجه النحاسى .

وتنطلق ضحكة وقحة مـن السحنة المحمرة المنتفخة ، فتسترد الأفواه ضحكاتها الماجنة ، تلك التى ليست لها .. فتصرخ هى ، بصوت لا يسمعه غيرها :

ـ أكرهكم ، أنتم جماعة المدللين ..

ثم يتعطل بصرها عن الرؤية ، كل الرؤوس اختفت ، وهى فى الزاوية، بعيداً بعيداً، لا ترى سوى نظرته المتواطئة، وصوته :

ـ رافِقْها .

وحين فعل .. بدأتها رغبة هوجاء فى أن تنعزل عن كل رفقة ، أن تعيش وحدتها تامة .. بدون أخيها ، وبلا وصايا

أبيها .. تتلقفها الشوارع العريضة ، تمرح فيها خطواتها الهاربة ، تنفضح أمامها تلك الخطوات فى عيون المارة مع استنكار أخرس .. تجاهلته ، حينما وجدتها تزداد الحاحا فى الجرى ، لتحس بأنها غير محاطة بكلمة أبيها وحصار أخيها.

ويأتيها صوتك :

ـ ألا تشربين ؟.. ثم تلحين :

ـ اشربى .

ـ فقدتُ رغبتى .

ـ فى الشارع كنتِ منهارة وعطشى !..

ـ حينما يشرب الآخرون أرتوى ..

ـ الجو مرح ، فلمَ تتكدرين ؟

ـ مرحهم لا يخصنى ، فهم انما يقيدونه اليهم بحبال دالية أزلية ، وهو ما أرفضه .. أريد فرحة لا تتحرك بدافع خارجى رخيص .

وتلمحين رعشتها فتستغربين :

ـ الجو حار !!

ـ بالنسبة لك .. أنت التى تملكين كل حواسك ، أما أنا ، فلا أمتلكها .. كثير منها ينقصنى ، وفقدُها يشلجنى .

ولا تدركين ، فتقولين :

ـ المكان كله صخب وحرارة وضحكات .

فترد بعنف محتج :

ـ لا أراها ، لا أسمعها .

ـ انت غيرُ بنات جنسك . تملكين غير ما نمتلك!..

فتصمت ، ثم تهمس بلوعة صادقة لنفسها :

ـ كل ذلك ، انما يعمق جرحى وكفى ..

ولا تتركينها :

ـ أراك تحملقين ، ببصر زائغ ، فى الفراغ ، فوق الرؤوس ؟

فتنفجر :

ـ فيها أحملق : نظرة أبى وأخى .. حينما تبادلاها ، فحقّرانى بها ، وأعادانى الى البدء ، أبحث فيه عن يوم أول آخر ، ابتدىء منه حياتى .

ـ كيف ؟؟. فتعيد باقتضاب يتشكّى :

ـ أبى واخى تبادلا نظرة !..

ـ وما ذا فعلت أنت ؟

ـ ساعتها نسيت لمَ أخرج ، أحسست بأننى أسيح وراء أركان البيت ، ليتلقفنى المدى فأضيع فيه .. بعيداً عن الحدود .. عن القيود .. عن الوصايا التى لا تَرَى فى سوى حواء الطفلة .

* * *

ـ الى أين ؟

بسؤاله هذا نبهنى ، فقررتُ :

لن أترك له خط الاختيار ، لئلا ينفذ وصية أبيه .. لأفسدن النظرة المتواطئة ، فلا ينظران لبعضهما من بعد ، الا نظرة سليمة ، لا تحمل الى عذابا او رغبة فى هروب .

وأجبتُه :

ـ الى هنا .

ـ هنا ؟! ، وما ستفعلينه هنا ؟

ـ شيئاً ما . ثم أضفت وأنا أضرب الباب لتنسد :

ـ سأعود لوحدى .. لوحدى سأعود .

وانعرجت خلف السيارة لأقطع الشارع من وسطه ، أتخطى النفير .. والمارة .. والاحتجاجات .. وتآمرهما :

وتهت ، كل ما هو لى أو لغيرى أنمحى ، لم يبق لى من هذا العالم سوى نظرةٍ تتآمر بى ، ترى فى ضعفى ، تردنى الى مراهقتى .. لم تقتنع بعد بنضجى .. بقدرتى على مواجهة الناس ، والنداءات ، والضعة ، والشرف .

وكـان احتجاج عنيف يمرح فى داخلى ، يعذبنى . يصيح من تلفى ، مـن غمائى ، من تسكـعى .. من تلك الخطوات اللامنتظمة التى قطعتُ بها مسافات لا أدرى طولها.

* * *

ـ تفضلى .

كنت قريبة من واجهة زاخـرة بأشيائها ، ففعلت ، وأنا أحملق فى صاحبتها بعيائى الابله .

ـ ما تريدين ؟

ما أريد ؟!.. ما أريد ؟! ، لو كنت أدرى ما أريد ما استجبت لك ولا دخلت محلك .

ـ ما ذا تريدين ؟؟ بالحاح هاته المرة .

فالتفت ، وأشرت الى اول ما انطبع فى عينى :

ـ هذا .

ـ آه ، انه جميل ، هو الوحيد الذى وصلنا مؤخرا من «باريس» ، انك دقيقة الاختيار ، ذات ذوق ممتاز . تفضلى لتقيسيه .

وأطعت .. وأنا لا أملك أية دقة فى أى شىء ، حتى فى الثمن المرتفع الذى دفعته لشىء بخس على ابواب انتهاء فصله . راودنى بعض الادراك فى انها تغشنى ، تضع حولى ألاعيب جنسها لتصطادنى ، ولكننى كنت عاطلة : نظرة ابى وأخي أفقدتنى قدرة ان أرفض .. أن أحتج .. أو أختار : لقد ضيعتنى .

وخرجت ، فاستفقت : ابتعت معطفا بمال ليس لى ، انه موضوع عندى وكفى . فاعترانى ندم ثقيل كثقله ، وظللت مسمرة بحيرتى مع هذا الثقل فى يدى ، فهو لا يخصنى،

ان المـال لغيرى ، فكـنيف سهوت' حتي اصطادت صنـارة «اليهودية» أمانة الغير عندى ؟!..

وراودتنى رغبة فى أن اعود اليها ، أن أشرح لها القضية، لكنها لن تقبل ، فلمَ اذن أعود؟.. لقد جعلتنى أفعل شيئاً .. غير أنه ليس لى ، نفذته حتى النهاية .. لكن متى سأفعل شيئاً أريده أنا .. بعيداً عن حماية أبى ، وحراسة أخى ، وغش أصيل يفوح من كل تبادل تجارى .

* * *

وتلتقطين أنتِ الحكاية من وجهها الباسم ، فتصيحين :

— هذا رائع .. رائع .. لكنى لا أراه معك : المنعطف الاسطورة هذا ؟

— عند جرائدى وضعته فهو .. وجدران بيتنا .. وهذه الالوان المصفرة ، والضجيج الباهت ، لن تكون بالنسبة لى ، غير تجسيدٍ لعجز فاضح تعلن عنه كل هاته الاشياء .

الصوت الآخر ..

ياجونة ناحبة فى زبوع الاقزام .. انجلى !.. ويقول صوتك بهلع :

ـ عرج بنا ، قد يتلقفنا الرصاص الغادر ..

وفى اقتراحك أعثر على العكس .. على ما أوده : يجب أن يثبت الدم وشائج التحامنا المهترئة .. نحن جميعا ، فى كل هاته الاصقاع ، التى عاشت النكبة ، أو التى ظل وترها يضرب على نفس النوتة فى الاعماق ..

وتلح :

– ان المنطقة خطيرة .. يجب الاحتراس .

فيقطر من فمى صوتٌ ، نبراته كالفحيح :

– أبَعْدَ كل ما عرفت .. لا زالت مشاعرك فى الحياد؟!

فتفاجئنى :

ـ وما العمل ؟

ويتيهنى السؤال عن تخطيط يجب أن يتولاه غيرى ، ولكني أستدرك :

ـ على الاقل ، يجب أن تضيع فى احساس جماعى .. عام !

ولكنك لم تذعن .. كان رنين طارىء لثروة مختلسة يشدك الى المراتع الاخرى ، ويبعد خاطرك عن أية مشاركة للانسان المنبوذ فى هاته الفلاة : يعانى بعاده والتقاط ايامه على أبواب جنسية يدفع مطامحه وانتقاماته وعنفوانه ثمنا لها .. فتقول لى ، بخبث مداهن :

ـ والأولاد !؟

وأدرك أنه عذر مغشوش ، غير سليم الاعتقاد ، فانفجر:

ـ أهم جدار بينك وبين الانسان فيك !؟.. يجب أن يموتوا .. أن نموت كلنا .. أن يكتسحنا الدمار .. أن نغسل العار ...

.. وحينما أصمت ، يكون قد قبع فى نظرتك ذل صريح ، كنت تحاول فى بقية الجولة أن تبعده عن ادراكى

بذبذبة عينيك ، ولكنه مع ذلك كان نفس بصرنا جميعا .. جيلك .. وجيلي ... المنبثون فى شساعة ذليلة .. الممسوخون وقد تضاءلت قامتهم فناءت بقضية .. لتتولاها .. تحوم حولها بعزم .. وتخترق أهوالها بتضحية . ويفاجئني ادراك مقنع :

– لم أثر عليك وحدك.. ثرت على كل ما رأيت وعرفت.. على الصرخات الجوفاء ، وقد استغرقت من عمرٍ وجهدٍ ودورٍ رؤساء ودول .. كيف يتناحرون كبغاة !!. ينحنون لتصاميم المشترين بصفاقة .. يتلبسون فوق حقيقتهم المباعة ، بجلد وصوت المهتم .. **واين الجميع ؟!. أى فارس يرعد فى موت خنوعنا ليدمر هوائنا ويعيد الينا أسطورة الاقدمين مجسدة .. فيكتسح بنا وبقيادته .. افظع مذلة سجلها جنسه .**

ثم ...

هنا بقرة .. تستغرق اهتمامى بقوائمها المغناج ، فأفكر:

ـ لعلها ليست من هنا .. من فصيلة بقر المنطقة ، فلو كانت تنتسب الى قافلــة المطرودين لمسخها الاحساس بالطرد ، والتخاذل عن مصارعته .. و .. وأتذكر :

– انها ككل شيء هنا..كبسماتهم الشوهاء وقد انزرعت

بلا لذة على ذقونهم المنتوفة .. كحركاتهم الهوجاء .. كجنون عجلاتهم .. كاهتمامهم الذاتى الأرعن بغرس فلول أبناء وطن معفّر ، في لوائح هجينة لمواطنين لا يمكن أن يكونوا الا مخلصين لجلدتهم .. كالجميع .. كاللامبالاة الكبرى وهى تصفعك من الجو العام والخاص والسلوك والتخطيط والرأى.. كالبقرة ، وهم .. ونحن .. ورفيقى .. والشوارع والعموم : ميتون .. لم يستهلك الواقع من البقرة جزءاً من قوائمها .. ولا من رفيقى ، قليلا من صخرية داخله النهم .. ولا من هؤلاء شيئاً من دعتهم الخاملة ، على الحدود الهادرة بألف بركان .. ولامنى .. غير ماء وجهى والدموع !..

وألاحظ : كل شيء مشبوه .. المتاريس .. والقبعات ، وفحص الجوازات ، والبنادق القابعة بدلال فوق الاكتاف التى هدّها الترقب .. وليس هنا من حقيقة الا هذا الاسم : الموت ..

ـ لماذا لم يختر هذا البحر ، من دون كل البحور .. ألا يموت الاهنا !؟..

ـ كل يبحث عن ألفه حتى يجده ..

ويبقى البحر الميت .. أو الموت البحر .. يسيح ..

ينهمر .. يغرق مدن الموت .. أجيال الاحتضار .. القابعين في الثكنات الذابلة .. والرابطين ضياعهم الى جذوع خيام في فيافي جائعة التربة والمنظر .. ثم يبلغ عجلات سيارتنا ، فأقهقه .. بنشوة من رضىً بعدالة ، ولكنهم يعلقون :

ـ ما بك ؟!

ـ الموت ينتقم ..

ويستنكر صوت مجلي :

ـ ماذا ؟!.. ان حالتك قلقة .. فما معنى هذا الموت الذي تذكرين ؟

ـ هؤلاء صنعوه .. ألم تسمعه حينما كان يخبرنا :

ـ لسنا ميتين بالأصالة كما قد تتهمين .. تحركنا وانتفضنا وغسلنا جبهة الارض المضيافة (!) بدماء أمهاتنا وأبنائنا وشبابنا .. احتججنا وتنمرنا وقلنا : لن نتجذر في غير تربتنا السليبة .. امنحونا فرصة أن نسفح مهجنا على أعتابها .. عوضوا عنا كل هاته الخسارات التي نعاني منها ، بفتح الخط بيننا وبين المعركة .. فما ذا فعلوا ؟.. حصدونا .. حشوا أصواتنا وبطوننا بالموت .. ثم ، حتى الصبية الصغار..

الذين كانوا يحملون بذرة الاصل والطلب بجدة .. خرجوا ، ولمدينة ممزقة بالاسلاك والفيالق والمصفحات يهتفون بذلك الرئيس الذى رأيناه بطـلا ، ويتنفسون باختنـاق مليون سجين .. لم يرحموا فيهم فتوتهم الطرية .. لاحقوهم ، جاءهم الامر .. ارتعشوا من أن ينفذوه .. جاءهم كبير يأمـر : اقتلوا .. امتدت فوهة وشتت في فتوتهم كل الوعود .. ثم جُنت ، فاستدارت وتصيدت الصوت الآمر ، وافرغت البقية فيها .. فى رأسه القاتل .. وبقى الحادث حكاية دامية حبكتها أنامل اخوة فى أحضان أرض مضيافة !..

* * *

ـ وبعد ؟؟..

أجاب رفيق آخر :

ـ سنلتقى به .. وعـدَنا أن يلحق بنا ..

وفعل ..

.. كانت خطواته التى ترافقنـا بالقدس مرتبكة .. (تستيقظ كل جروحى دفعة ، حينما أوجد فيها) .. وبصره مغروسا فى الارض .. وفمه ويده يشيران أحيانا باعلام :

ـ هذا جبل التكبير... صلى وهلل وكبر عليـه عمر

الفاروق قبل أن يستلم مفاتيح المدينة .

ونمعن في الانصات.. فلعل صدى صوت كاسح لا زال يجوب مناطق النصر .. لكن لا شيء ..! انه مهدد .. ثكنات قابعة في حجرة تمتص امجاده .

ـ هاته الباب .. هي التي على الارجح ، دخل منها .. وهنا أيضا ، انطلقت رصاصة منتقمة ، في صدر كبير منذ مدة ...

ونمعن في الحملقة .. درب هامد خامد .. قد افنى أزيز الرصاصة فيه همهمة الخطى الوئيدة « لخليفة » كان يثق بنهايات أعماله .. يسير الهوينى لاستلامها دون خوف او احتياط ..

ـ قبة الصخرة والمسجد الاقصى .. ومحل تعبد مريم وزكرياء .. يا لغربة كل ذلك !.. ويا لضياع الوهج اللامع في **القبة المطلة على الابعاد .. فلكأنها قد استجمعت في رونقها المترفع في الاعلى .. كل حكايا قادة وملوك وشعوب .. عرفوا كيف يبنون .. أما القعر .. أسفلها .. فهو لهؤلاء.. عليهم ان يحصنوا جذوره .. وان يتركوه يضرب في اعماق الاحقاب**

والدهور .. ليربطوا القبة : بقايا تاريخ .. بالجذور .. بجهد حالى .. لشعب عليه أن ينفذ دوره ..

وتكلمنا نحن ، هاته المرة :

ـ رافقنا .. نُصلّ ركعتين .

فدار بصره دورة سريعة ، واعاده الى الاسفل ولم يتحرك .. انما كان فى الداخل يهدر ..

أيضا ، بالحاح من الرفيق الثرى :

ـ ادخل معنا .

فاستطاع ، هاته المرة أن يفعل أكثر ، حينما أمهل حركة بصره، فتركه ينغرس فى عيوننا بشكل ينتحب، فتلقفنا أنينه بما معنا من تمزق .. وركعنا .

وتحرك شريط لسانه :

ـ مسجد عمر ، وكنيسة القيامة .. حضر وقت صلاة العصر ، فامتنع عمر عن تأديته بالكنيسة ، احتراما لتعهداته.. ابتعد قليلا وصلى .. حيث أقيم المسجد .

ثم رمى قامته على حافـة الباب ، وحملـق فى مرمى

أرجلنا ، بينما كنا نخطو بإحساس فاجع .. وبه ، كان سجل ازدهار قد انطفأ ، معلقا فى وثيقة استلام المدينة ، على صدر مسجد عمر .. ينتحب .. وكان نحيبه يتعالى حتى من الوجوه، والافواه ، والمبيعات ، وشجرة الليمون اليتيمة فى صحنه .. وصوت رفيقنا الذى كان يهمهم فى أعلى الدرج :

ـ لا شىء .. لا شىء !..

ـ ألم تنج بقية ؟

ـ وكيف تظنيننى أعتقد ؟!.. يشهد كل هذا العذاب ولا يتدخل !

ـ وما ادراك ؟!

ـ لا شىء .. أبدا لا شىء .

ـ الايمان ينطلق بدءاً من ذات المومن .. فلو كانت هناك بقايا فينا .. تدفعنا الى أن نعتقد فيها .. لانفتح أمامنا باب الايمان الاكبر : الرجاء ، أما وان تحصد النكبة قيمة الانسان فينا لئلا نغفر له عدم تدخله ، فانما ذلك ، اتكال ، انقضى دوره ..

ـ ومع ذلك .. يجب أن يكون له دور .

ـ ودورنا ؟!.. طاقاتنا .. العضلات والفكر ، التذمر والشمم .. أين كل ذلك ؟!

ـ والآخرون ؟!.. الجدار .. حراس الاثم !

ـ كغيرهم ، كصانعي الذنب .. انهم واجهات متعددة لمعركة واحدة .

.. ثم يعذبنى أن تكون النكبة قد تسللت الى أعماقه ، فتصيدت فيها الكثير .. فهو ليس كالآخر : كالذى زرع فى قتامة ما شاهدناه ، بريقا من أمل .. انه ، هذا ، كرفيقى، كل منهما يتنصل تحت تأثير مفعول ..

ولعله أدرك مفهوم تهويمى ، فقال :

ـ لو استطعنا فحسب : أن نحس سيطرتنا الحقيقية ، على بقعة من ترابنا ، لاستردنا جبروتنا .. ولانطلقنا .

فرددت بصدق :

ـ وقبل ذلك .. لو سيطرتم على قيمة الانسان فيكم .. أحطتموه بيقين لا يتوزع ، فى أن كل نازلة لا تندركم بنهاية.. لامتلكتم كل ما يلزمكم . البدايات والنصر : ..

ـ قد يكون ذلك حقا .

ثم أضاف ، كأنه قد تدارك اعتقاداً جماعيا .

ـ **الانسان هنا .. رغم شظفه .. لا يريد أن ينسحب، فهو يعانى من عيشه والظروف ، مفضلا ان يرابط على الخط، انتظارا ليوم يمحو فيه مهانته .**

ـ هذا اذن يملك ما يؤمن به .

وبنبرة محتجة أخرسنى :

ـ **وهل هناك من لا يؤمن ؟!.. كلنا نرهـن أعمارنا والمستقبل ليوم .. سنهدد فيه العالم والسلام ، وننزع الامن بتنمرنا ونكتسح الاثم العالمى بصدورنا .. انما .. كما قلت: هؤلاء .. انهم رنين كبل يحجزنا فى منطقة . وفكرت ، بما هو اكثر من العذاب :**

ـ القضية قضية هؤلاء .. قضية الاحباب! وسألته :

ـ وهم الذين بنوا السور ؟!

ـ ليتيحوا للجنة الهدنة الدولية مراقبتنا !!

ـ أنتم .. او المنطقة ؟

ـ نحن بالاخص !

ـ كيف ؟!..

ـ لو تسلل أحدنا ، ونجا من العيون الداخلية .. لالتقطته عيون هؤلاء وابلغت سلطة اللقطاء بمن دخل .. واين اتجاهه .. ليتصيدوه بمرونة ..

ـ المراقبون الدوليون .. هكذا ؟!..

فنشر بصره كأنه يتلقف به كل شيء ، واصدر حكمه:

ـ لا أحد شريف ..

وارتعد .. فضاع بصره ، بينما تشنج صوته فى حزن :

ـ لما ذا نعانى ، نحن ، كل هذا اليتم ؟!!..

ثم علت شهقته .. كغريب فقد أباه .. الوحيد الذى قد يربطه بشيء او مكان أو حدث .. فقده فى متاهة المجهول.. فظل يتخبط .. ومعه كل شيء ، يتخبط .. السور .. والقبة الساطعة بابريز .. وجبل التكبير .. وصخرة المعراج .. وسجن سليمان .. ونحن.. والثرى الجبان فى ثلتنا .. وبعيداً حيث موكب الانبياء بالخليل .. ومراتع المسيح ببيت لحم ، وكل المنطقة حيث سقط الجميع فى مناحة بشرية اقترفتها مبادىء القرن العشرين !.. بينما من هناك .. من البعد القريب ..

من خلف الجدار .. من مصانـع الأفـذاذ بأحياء القذارة «الغيتو (1)» كان الصوت الآخر للمكبلين يهدر :

. . . . .

ربما ترفع من حولي (2)

جداراً

وجداراً

وجداراً

ربما تصلب أيامي على رؤيا مذلة !

يا عدو الشمس .. لكن .. لن اساوم

والى آخر نبض في عروقي

ساقاوم ..

فانتفض الصدى من كل شيء : من الاسلاك والمآثر

---

1) الاحياء التي كانت خاصة باليهود ، ثم اصبحت هي احياء العرب الفلسطينيين بفلسطين بعد النكبة (الملاح).

2) من قصيدة «خطاب من سوق البطالة» للشاعر الفلسطيني سميح القاسم ، الذي يوجد بالقطاع المحتل من فلسطين.

ودموع الايتام وقافلة الحزانى فى القارتين المنتفضتين ..
وصاح الجميع :

والى آخر نبض فى عروقى ساقاوم (3)

يا عدو الشمس .. لكن ..

لن نساوم ..

---

3) حدث تحوير فى ترتيب البيتين ، ففى الاصل ، ان الاول هو الثانى ، والثانى هو الاول .

ليسقط الصمت

المكان : بعضه

الزمن : جزؤه

الوسيلة : حافلة بعربات اربع ، تعكس الممكن في لا تجاوزه ، وتنفي أبديته .

* * *

(الحافلة ذات العربات الاربع ، تسير بسرعة واثقة) .

العربة رقم 4 :

الاول .. لم يكونوا هكذا .. أجدادك وأجدادى .. ان الحال تغير .

الثاني بتؤددة محتجة :

– وانت ؟.. ألا تعيش ؟!.. آنت ايضا تعيش..

الاول – عيشة الوباء .. دائماً مطارد : كرامة المفتش أعز من كرامتى ، فلانني واجهته بكرامة لا تذل ، فقد تحولت من معلم الى .. الى .. الى الآن : بائع خضر .. ثم ، وبفعل تسلسل الحقارة التى تتعقبني ، اصبحت لا املك ركنا أعرض فيه بضاعة لا توفر حتى الخبز ..

فأى شىء لى اذن من كل هاته الاصقاع ؟!
(ثم رمى نظرة نكدة على السهول البكر التى تتراقص عبر النوافذ الكاشفة بوضوح) ، وسمع فى اعقاب نظرته :

الثاني — وهل بتّ يوما جائعا ؟؟

فرد عليه اولال بصفاء : لا .

الثاني — وهذا اذن فضل .. خصوصا وان الامن قد توفر ، لم تعد الارواح تزهق من أجل «بصلة» كما يقولون .

الاول — الامن ؟!!.. ولكن الارواح اصبحت بلا أمان حقا، ذلك أنها أصبحت مهددة بشكل مدروس.. ولتبيق .

الثاني — ومن قال لك هذا ؟

الاول — واقعك وواقعى .. كلنا .. والجميع ، وهل نملك أن نتصرف ؟!

الثاني — (باعتراض) : لا ، (ثم) ولماذا ؟

الاول — لانهم كل شىء .

الثاني — من ؟

الاول — الاسياد .

(ضوضاء جانبية مباغتة)

الثاني — ما هذا ؟

الاول — انها جلبة الدفع .

الثاني — ولكنه يصيح !.. لا يحق له ان يفعل ..

الاول — لانه لا يملك ثمن الدفع .

الثانى — ثمن ما ذا ؟

الاول — (بتوتر) : ثمن عبوديته ..

فلاحقه بنظرة تتهمه ، واكد :

الثانى — ولكنه فرض .. الدفع فرض، على من يملك، ومن لا يملك .. فكل ركوب ببديل .. كان عليه ان يفكر ولا يحدث فوضى .

(فتمعن فيه قبل ان يجيب) :

الاول — ليس ركوبا اختياريا .. ثم ان الفوضى ..

الثانى — (بتشنج) : الفوضى .. ما ذا ؟ الفوضى.. (كان صوته يرتعش بلا براءة ، ولكن الآخر تفصحه بلا تأثر ، وشاركه بدوره :

الاول — وما ذا ترى أنت ؟.. انك تجعلنى اتساءل.

الثانى — الفوضى الاخرى .. لا أقرها .. وحتى هاته أجدها اضافية .

الاول — ولكنها ليست اضافية .. فرئيس هـذا الفوضوى فى العمل يهيىء مصيره .. فكر أن يشترى عمارة اخرى ، فاستدأن من المشتغلين عنده . (وتريث قبل ان يضيف) :

تقتله الرغبـة فى ان يصبح شيئاً مهماً فى الواجهة البرجوازية لهذا الظرف ، فيسرق ويستدين من لقمتهم لان يصل .

الثانى — هو ؟!

الاول — هو وغيره .. كلهم . فأنت لا تملك ثقلا يشدك الى بقعة ما ، وهم ، يريدون ان يكتسحوا كل البقع والمسافات .. وبذا ، فان له عذره : أن ليس له ما يدفعه .

الثـانى بتكرار ، بعد صمت قصير مفكر :
— ولكن ، عليه أن يدفع .

الاول — بامتعاض خانق :
— عليه ان يدفع عنقه ، فهو ما يملكه (ثم غيّر) :

الاول — هاته السرعة، تبعث فى احساساً بالجنون.. فهلا كلموا السيد السائق لان يقف .. فهاته هى المحطة الحادية عشرة .. والى متى ؟!..

الثـانى — (يشير له الى لافتة صغيرة معلقة مكتوب عليها : لا تكلم السائق) وهو يقول :

الثـانى — مكالمته ممنوعة .

الاول — لما ذا ؟؟

الثـانى — لانه السائق .. الرئيس .. سيد مصائرنا ؟!

الاول **— ومن سنكلم ان لم نكلمه هو ، من اجل أن يتوقف .. أن يمنحنا فرصة التحرر من هذا الجريان الغافل .. فالحقول المزهرة تفتح قلبى على الحياة خارج هذا القرار .. كجميعنا ، نحن المكدسين فى هاته العربة .. دون ان نملك فرصة السيادة التقنية عليها ..**

الثـانى — وكيف سنكلمه في ذلك ، وهو الذى قرر

ان نعبأ .. هكذا ..

الاول وقد ابتسم وقال بتريث :

– التعبئة العاطلة!.. فى العمل.. فى التفكير:: فى التخطيط ، والرغبات !..

الثـانى – مع مثل هاته المخلوقات ، لا يمكن أن يصلح الا هذا النوع من التسيير .. ثم أنه قد تحمل كل شيء عنا .. لانه اصبح جميعنا .. ونحن نمتلك كل الراحة .. حتى راحته .

الاول – ولكنى أفضل أن أملك كل ما يخصنى : رشادى وضلالى .

فحملق فيه باتهام وسأله بهجوم :

الثـانى – ألا تحبه ؟

الاول – آه .. الحب ؟.. قد لا أجادلك فيه :: لكنه فى حاجة الى حصانة .. ولو تهدد ، فانه لن يستمر ، مستمدا أصالته من عراقة التحام كان يضم الجميع .. هو ونحن ، الى بعض .. ومن اجل ذلك ، من اجل توفر عنصر النية الحسنة والثقة فى الطرف الآخر ، فان كثيرا من الاستفهامات لا تستنيم فى أذهاننا ، بل لا بد ان نعرضها ، وبحسن مقصد ايضا ، لانها تهم الزمن والمكان والجيل .

الثـانى – مثلا ؟

الاول – دعني أسألك : هل لا زلنا ننتسب الى طفولة البشرية ؟.. ان الاستبداد ولّى مع يفاعة

الانسان ، فكيف نحن نعيشه ؟!

الثــانى — لا ، انه ليس باستبداد .

الاول — وما هو اذن ؟ بأى اسم تريد ان تسميه ، حينما تكون هنالك ارادة واحدة تعمل ، وباقى الارادات الاخرى معطلة .

الثــانى — ومن عطلـك ؟!.. فأنت تعيش ، وترى التعبئات والشروع .. وتسمع .

الاول — اننى لا أملك حتى حق التفكير فى أوضاعنا، ذلك ان ليس هناك حق فى المشاركة عن بواعث الفعل وغاياته.. فنحن نسمع بقَدْر ، ونفهم بقدر ، ولا نشارك بأى قدر ..

الثــانى — ذلك راجع لنضج شعورك الاجتماعى ، او عدمه .

فنظر اليه وسكت .. ذلك أن نظرته كانت تتمهه : مثل وجودك يزيد فى تعطيلنا ، حيثما يتهيأ امثالك لتمجيد كل حركة مجهضة ، بلا صدق أو اخلاص .. فلا تمتلىء سنواتنا سوى بأنصاف المشاريع وإشباهها ، لكن ، حينما يعم النضج ، سيختفى الحربائيون ، ويكتمل المشروع . ثم همهم بالتياع :

الاول — لسنا جميعا نحس هاته الحاجة .. يجب أن نحسها جميعا لنستطيع أن نكلمه فى الوقوف مخترقين جدار السادة الأرعن .

فمر به احدهـم ، وهو يسير فى اتجاه

العربة الثالثة ، والتقط منه كلامه .. فسار يعلق متمتما :

— نعم .. يجب أن ندركها جميعا .. ان نؤمن بها .. وان نوقظها فى النفوس التى أطفأتها الضروريات أو الكماليات .. فالحافلة لا تزداد الا قذفا بنا فى الجولة الخاسرة .. وهى قد بلغت المحطة الحادية عشرة، فيجب ان نتوقف، وان نترك الاقدام المتصلبة تنزرع فى البرارى الطافحة بالثراء .. وان تكون لهم .. كلهم ، تلك البرارى ، بلا حجر او تقنين خاطىء .

العربة رقم 3

احدهم يسمعه :

— ما ذا تقول ؟

الاول — ان القطيع الضخم المشحون هنا (واشار الى العربة رقم 4) قد بدأ يفكر .. على مستوى هائل .

الثانى — (بابتسام) : ذلك ان التعبئة المجمدة قد اتت أكلها .. المعكوس ..

الاول — ولكن ما هو دورنا ؟.. نحن من كان يجب ان نسبقهم فى التفكير ، لاننا نملك وسيلة التوعية والقيادة .

الثانى بتناس :

— انه بعيدالمدى.. وبالمقابل، فعن طريقاجتياز

المحطات فى تجرد تـام عن الخلق والحركـة والتفاعل التاريخى ومواكبة الامم ، ستيعون أكثر .

الاول — (بتفكر) : حقا .. ولكن .. علينا على الاقل.. ان نبلور الامر أكثر .

الثـانى — كأن نفتح امامهم كل نوافذ الواجهة فى عربتهـم ليروا كلهـم .. فالارض هناك .. وركودهم المجانى هنا ، لا بد ان يتلاقحا .. فيحدث امر .

الثالث — (يتدخل) : نفتح النوافـذ ؟! نحن غير عمليين ، علينا فقط أن نحلم ، فطبيعتنا غير عملية ..

الاول — حينما لا تعمل ، فانك تصبح غير مفيد .. ووجودك لا يثبته غير ان تكون مفيدا .

الثالث — ولكننى أحلم .. وهذا نفسه دور .. فليس بامكان كل أحد أن يحلم .

الاول — لكن يجب ان تشحن حلمك بموضوعية ليكتسب قوته .. أما وأنت ساه عن كل ما يختلج خارج سياجك .. فلن تكون غير هارب.

الثالث — طبيعة العمل والحلم مختلفة .. وحينما تعتقد انت ضرورة أن نفتح النوافذ ، ان نحرك الاعناق ليتَرَ .. فسنكون غير منسجمين مع ضرورة الحرية لنا كمنطلق وغاية .. أنك بذلك تضغط على جانبنا البشرى ، وتريد

اخضاعه لضرورة .. والضرورة لا تكون ضرورة بالنسبة لنا ما لم تنبع منا .

الاول — ولكننا تأخرنا فى انتظار هذا التدفق الاختيارى ، ومثل هذا التاخر يجعل الفنان فينا يطغى على المواطن .. وذلك يجعلنا غير جديرين بالمسؤولية ، فابراجنا لا يبلغها صدى العويل والاحتجاج والتذمر .. وحينما نحقق توافقاً بين الفنان والمواطن فينا ، فاننا نحد من تهورنا فى التعلق بالتفرد ، ونبلغ بأنفسنا درجة الانسانية فى ابعادها اللامحدودة.. يجب ان نفتح النوافذ .. فنحن أدون من ذلك الانسان العادى .. ذلك لانه بلغ وعيه بمفرده، فعلينا فقط ألا نتخلف : أن نشاركه فى مخاضه ، وبراءته ، واباته وحركيته .

الثانى — (يتدخل من جديد) :

— والادهى .. ألا ترون ، ان الزمن قد تقلص ؟..

الاول - تقلص ؟!..

الثانى — بل ، لقد فقد حقيقته .. فهو ليس سوى تنظيم للحوادث فيما بينها ، ونحن ، هنا ، قد اصبحنا بلا حوادث .. فسرعتنا هاته ، انما هى قفز على الاشياء ، وليست شيئاً منتظما فى حد ذاته .

الاول — فهل تعنى أننا قد أصبحنا خارج الزمن والمكان ؟!

الثـانى — لست ادرى .. فلو حققنا هذا الخروج ، لكنـا قد حققنا للانسان نصره فى المجال الفلسفى .. ولكن ، انها حالة خاصة .: حالتنا هاته .

الاول — هى ان تعيش فى قيود الزمن والمكان .. بلا حوادث ولا تنظيم .. بلا زمان لك انت .. فأنت تعيش الزمن دون ان يكون لك .. لان زمننا المحلى ساكن لا يتحرك .

الثـانى — ذلك لاننا قد قبعنا ، بلا اية مشاركة .. حتى العملية منها .

الاول — علينا اذن أن نشاركهم .

الثـانى — وكيف ؟

الاول — ان نحطم أكثر ، مهابة فئتنا لديهم ، وأن نندمج معهم : وعى وتحفز ، يمتزجان من أجل العمل الحقيقى .

بصوت جماعى :

— ذلك حق .

(جلبة)

العربة رقم 2

صوت منغم بافتعال بارد يأمر :

— اضغط على الباب ، فالهرج يصل .. وهو لن يريد ان يتكدر الهدوء بالعربة الاولى .

الثـانى — (بتأفف) : لن نسلم من اثرهم ، مع ان

التخطيط كان محكما فى تخصيص العربات، لان نكون بمنجاة منهم .

الثالث — ولكن أصواتهم جهورية !

الاول — وما العمل معها ؟.. هى ما لم نستطع بعد أن نروضها .

الثاني — وبذلك .. فهي ما تقدر الآن ان تفسد متعة اطمئناننا .

الاول — بتشنج : يجب أن يصمتوا .

الثالث — (بلهجة غير واضحة) :
— سيقولها لهم .. الآخرون ..

الاول — من ؟

الثالث — المنبثون معهم !..

الثاني — وقد لا يسمعون .. فتصل الاصوات اليه وهو يقود .

الاول — بالحاح منهار : واذن ، ما العمل ؟؟

الثالث — (بنبرة نكاية متسترة) :
— لا عمل .

الاول - (وقد احتد) :

— لا ، يجب ان نحكم السد .. فتفنى كل الاصوات خارج أذنيه .. يجب الا تكون هناك غير أصواتنا .

نظرات متبادلة متشككة ، يتشجع الثالث فى أعقابها لان يسأل :

– أنبلغه الامر ؟

الاول – ابدا .

الثانى – ولكنه لا يريد .. لانه يود ان يصله ويصل هو الى كل شىء بنفسه .

الثالث – (وقد طفحت نظرته بشبه ازدراء) :

– هراء .. لن يفيدكما هذا اكثر ..

الجلبة تزداد ارتفاعا :

مزقوا اللافتة .. ليسقط الصمت .. كلموا السائق . ان قلبه من قلوبكم ، ولن يبعده عليكم جدار العربة الثانية ، واعشقوا الارض وسواعدكم .. وتحرروا من الحركة الجزئية المجمدة ، واندمجوا فى الحركة الكبرى : حركة انسان هذا العصر فى عصره .

فهرس



« خناتة بنونة »

ترى أن ميلاد الكلمة في ذهن الكاتب لا يرتبط بتاريخ الشخص بقدر ما يرتبط بمصيره ، المصير الذى يتحدد منذ النطفة الاولى .. فالكلمة عزاء للاحساس المرهف الذى تخدشه المواضعات المبتذلة والشعور بالعبث . فهو الملجأ الاخير لكل الذين يجدون فى جبروتها ونبوءتها وقدرتها تعويضا عن الخذلان الذى يواجههم عبر الثوانى والساعات .

وبسبب ذلك ، فقد رفضت كل المواضعات الجائرة، والحذلقات الاجتماعية التى أعتبرتها مسخا للانسان فيها، وهشمت الصمت ، وفضحت كل مراوغات عصرها ، وتعرت الا من الكلمة والصدق ، فقدمت لنا هذا العالم الذى لم يستطع أن يسحرها ، لانه بلا وجه ما دامت له وجوه عديدة ببريق كابٍ . ولكنها رسمت ، عوض ذلك ، عالمها المثالى ، حيث يتواءم الناس ، ويتواعدون لمواجهة الزيف والاذلال واحتقار الآخر ...

وبهذا ، ففى هاته المجموعة القصصية ، التى هي أول مجموعة قصصية نسائية بالمغرب ، يظهر عالمها ثائرا بغير حذلقة ، وعمليا بدون أصباغ ، حيث أسقطت فيه الصمت من حسابها .

مطابع دار الكتاب ـ الدار البيضاء

